

خالد محمد خالد

والمؤمن بالله

كيف يفكر أهل الله
وفيما يتحدثون



الطبعة السادسة

جمادى الآخر ١٤٢٥هـ — أغسطس ٢٠٠٤م
القاهرة

جميع الحقوق محفوظة للناسر

مدار المقطع للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ربحان — عابدين

القاهرة

تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ — ٧٩٤٦١٠٩

فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣

email: elmokatam@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

من المؤمنين رجال نعتهم الرسول عليه السلام بأنهم "أهل الله وخاصته".

أولئك الذين تبتلوا لله، وحملوا بأيمانهم وفي قلوبهم نور القرآن الكريم، لم يلهمهم في طول الدنيا وعرضها شيء عن ذكر الله، بل نذروا لله حياتهم، وأسلموا إليه وجودهم، واتخذوه وكيلا..

وعبر التاريخ الطويل، كان هناك دائما، ولا يزال، فريق من أولئك الأبرار، لا يخلو منهم عصر ألا جيل، وكأنهم أوتاد الحياة يمسكون بها كي لا تميد وتهوى.. وكأنهم، بل إنهم لمصاييح الحياة يولقونها بنور الله..!!

وقد عرفوا عبر التاريخ بأسماء شتى. فتارة نسميهم: "المتصوفة".. وأخرى "أهل الله" و"أولياء الله" و"أهل الطريق"...

فعن "أولياء الله" كما أسماهم القرآن العظيم.. وعن "أهل الله" كما وصفهم الرسول الكريم، يتحدث هذا الكتاب.. وإليهم إهداؤه..!!

وهو ليس تأريخا لهم، ولا تقديمًا لسيرهم، إنهما هو محاولة لرؤية أفكارهم وفلسفتهم تجاه طائفة من القضايا التي يناط بها مصير الإنسان وخلاصه..

ومن خلال الكلمات الفاتحة والمضيئة التي عبروا بها عن أنفسهم وضمنوها فكرهم العميق والعريق، نحاول تحقيق الغرض الذي انعقد عليه عزم هذا الكتاب..

ألا، وإن للكلمات التي تنفجر عنها شفاههم لمذاقا فريدا..!!
فالتعبير النهائي للفكرة، والجمال المتألق في الصياغة، هما السمة المميزة لحديثهم وما ينطقون..

* فأيكم يعرف في وصف الصداقة الخالصة والإخاء الوثيق أجمع وأمتع من هذه العبارة:

"لا تتم المحبة بين اثنين، حتى يقول أحدهما للآخر : يا .. أنا !!"

* وأيكم يعرف في السخرية من النفاق، وفي التفجع من كثرة المنافقين أجمع وأمتع من هذه العبارة:

"لو خلق الله للمنافقين أذنا، ما وجد المؤمنون أرضا يمشون عليها" !!

* وأينا لا يستنجد بأقصى طاقات ذكائه، لكي يدرك السر الكبير الكامن في مثل قولهم:

"نعم الرب ربنا، لو أطعناه ما عصانا"
وفي مثل قولهم:

"لا عرف يقينا لا شك فيه، أشبه بشك

لا يقين فيه، من هذا الذى نحن فيه"

أو فى قولهم:

"ذلُّ من لا سفيه له" ..!!

إن وراء الكلمات التى يرسلونها فى تركيز باهر فيضا من الحكمة العميقة، والتجربة المفعمة..

وإننا لنعجب، كيف تواتيهم الحكمة فى أكثر أساليبها إشراقا وسلاسة وألقا، وهم الذين لم يتخصصوا فى فنون البلاغة والقول، ولم يعنوا برعاية هذا النوع من الموهبة.. بل هم الذين كانت العبارة الحلوة الآسرة تسبق إلى لسان أحدهم عفوا الخاطر، فيحتجزها، ويستخدم مكانها عبارة أخرى متقشفة شعشاء، درءا لما قد يطوف بخاطره من طائف الزهو والافتتان!!

أجل، نعجب كيف تنبثق الحكمة من أفئدتهم فى مثل هذا الجمال الفريد. لكننا نودع عجبنا سريعا حين ندرك أنهم إنما ينهلون من النبع الذى لا يغيض، حيث تتدفق عطايا ربنا وهباته - يهبها سبحانه - من يشاء، ويؤتى الحكمة من يشاء!!

* * *

ولقد أتيح لى فى فترة مبكرة من حياتى - ليشها دامت - أن أصحب هذا الرعيل الطاهر فى أخبارهم وآثارهم.. ولطالما بهرتنى - ولا تزال - كلماتهم التى كانت وسيلتهم لإبلاغ الصدق، وتبيان الحقيقة.

ويزيد كلماتهم تلك جلالا وقداسة أنها كانت التعبير الأمين الصادق عن حياتهم ومسلكهم فى الحياة، فما كان بين حياة أحدهم

وكلماته فراغ يتسع لمرور خيط دقيق!!

- كانت قلوبهم من النقاء والتبتل، بحيث ترى الحق كضوء النهار.

- وكانت عزمااتهم من الصلابة والمقدرة، بحيث تحمل تبعات هذا

الحق في عزم الراشدين.

- ثم كانت كلماتهم التي تحكى تجربتهم للناس، قواطع ماضيات

كالسيوف النقية المرفهة!!

* * *

والآن، يطيب لى أن أقرب من رحابهم فى وجل المتطفل، ورجاء

المتوسل، لأعيش والقراء معى لحظات يضمخها عبير ذكركم وذكرهم.

بين تراثهم الممتلى وحكمتهم الهادية، لنرى: كيف يفكر "أهل الله" وفيم

يتحدثون..

أجل.. مع أفكارهم وكلماتهم.. لا باحثين عن وجوه البلاغة وقضايا

المنطق فيها. بل مستسلمين لحبورها ونورها وحكمتها المكنونة فى

أعماق الضياء!!

راجين أن نذهب من نورها ومن بركاتنا بحظ ونصيب .

وعلى غير عادتى فى التأليف، سيجد القراء كتاباً غير مقسم إلى

أبواب وفصول.

إنه يبدأ، ويمضى، وينتهى، وكأننا نسترسل مع "أهل الله" فى حديث

واحد متساق وموصول!!

وعندما يلتقى القارئ بصفين من النقاط إلى يمين الصفحة، فتلك

علامة على أننا ننتقل من موضوع إلى موضوع، أو من إحدى حلقات

الحديث إلى حلقة أخرى عبر السياق المنثال فى تدارك وارتباط.

ولقد تتبعنا الكثير الباهر من أقوالهم في مصادر شتى، ثم رحت أستلهم هذه الأقوال ما تنطوي عليه من فلسفة وأفكار. ثم ما تطرحه من قضايا واتجاهات.

ولست أزعم أنني استوعبتها، أو حتى جئت منها في هذا الكتاب بالكثير.. إنما هي عجالة أرجو أن تكون - بعون الله - بداية لأعمال أخرى مقبلة في هذا السبيل.

* * *

ولنذكر، ونحن نتهياً للإصغاء إلى صوت الحكمة التي تصدح بها كلماتهم الهاطلة، أننا أمام هذا الرعيل الكريم من أهل الله وخاصته، إنما نتلقى منهم وعنهم طرازا فريداً من التجربة الإنسانية المفعملة بروعة المعاناة، وعظمة الوسيلة، وجلال الغاية!!

ومهما يكن الخلاف، أو يطل الحوار حول منهجهم، فهناك حقيقة تفرض نفسها على أولى الألباب الذين يعينهم دوماً أن يعرفوا.

* تلك هي أن التجربة الروحية والسلوكية التي شكلتها حياة أولئك الأبرار ليس لها من طرازها سواها..

* وأن حظها من الصدق حظ فريد..

* وأنها كانت وستظل تحمل من الرؤى ما ليس للروح الإنساني عنه غنى، وتحمل من الشراء العلوى ما لا يبدد فاقة النفس سواه!!

* * *

لقد كان أمرهم عجباً، وهم ينشئون في دأب رهيب أعظم وأنقى وأبقى مشاهد التبتل والولاء لله رب العالمين، بوصفه سبحانه أعظم

الغايات التي يجب على الوجود الإنساني أن يعيش لها وينمى مواهبه
تحت راياتها..

- تعلموا العلم وعلموه..

- أنضوا أجسادهم في الصلاة والصيام والنسك كافة..

- انتضوا سيوفهم لمقاتلة الغزاة الذين كانوا يتسورون حرمت
دينهم وتخوم أوطانهم.

- وعاشوا حياة خارقة في محاولاتهم الباسلة لتتويع إرادة الإنسان.
هؤلاء هم الذين كانوا يوصفون تارة بالصوفية.. وأخرى بأصحاب
الطريق..

ولكن اسمهم الحقيقي هو (أهل الله وأولياؤه)؛ ذلك أنهم في كل
ما كابدوا وجاهدوا، لم يريدوا وجهها غير وجه الله العلى المجيد،
والعبارة التي اخترتها عنوانا لهذه الصفحات، ليست سوى الشعار الذي
نحتوه هم لحياتهم.

ذلكم هو: " .. والموعود الله "

لقد رفعوه في وجه الإغراء الزاحف، والخطر المحدق.. ودمدموا به
على كل قوى التشيط والضلال.. وكان المعراج الذي تسنمته أرواحهم
إلى روضات الله ذي الجلال والإكرام.

فليمنحهم الله المزيد من خير ما أعد لهم من نعمة ورفعة وثواب ..
وليكن لنا من واسع فضله تمام نعمته وعافيته، وحسن مآب..

خالد محمد خالد

الأول الله

من أشواقهم إليه يبدأون.. وإلى متواهم بين يديه ينتهون.. من الله الملك الحي القيوم تبدأ مسيرتهم..
وإلى الله الملك الحي القيوم ينتهى مسراهم ومعراجهم.. فهو - سبحانه - الأول والآخر.

ورغبتهم فى التعرف إليه، وشوقهم إلى محبته ولقائه، يمثلان شدة الزناد.. حيث تنطلق الطاقة المشتاقة فى عنفوان مقتدر ذاهبة إلى هناك.. لا تلوى على شىء، ميممة وجهها شطر الطريق المفضى إلى سدرة المنتهى.. غائصة فى البحار المجهولة متسلقة جبال الضنى والهول.. مجتازة تخوم المألوف، إلى عالم كل ما فيه عجيب، وجليل، وباهر!! وعلى الرغم من أنهم مسافرون إلى الله، فهم فى ذات الوقت مسافرون بالله..!!

فإذا كان سبحانه "الآخر" الذى يقطعون الأعمار وثبا فى السفر إلى رضوانه وجلاله، فهو أيضا "الأول" الذى يبدأون الرحلة من دعوته، ومشيئته، وتوفيقه، ومن إرادته التى تقول للشىء كن، فيكون..

ومن حوله وقوته اللذين لولاهما ما قدر أحد على حركة أو سكون!!
ولقد أدركوا ما عمى عنه كثيرون، وهو أن رحمة الله قريب من
المحسنين، وأن مزعم السفر إلى رضوانه لا يكاد يلوح بعزمه وبأشواقه
حتى يجد كل مراكب النعمة في انتظاره، لتنتلق به في الموكب
المجيد والسعيد.. فالرب الذي يشدون الرحال إلى رحابه ليس فقط،
الأول في وجوده.. بل والأول في جوده!!
وهو - سبحانه - لا يعيق المهاجرين إليه. والمسافرين إلى
رضوانه.. بل يجعل لهم الأرض مهدا والسماء سبلا..
ولقد فهم أولياؤه هذا فوضعوا أعينهم على أنفسهم حتى لا يؤولوا
من قبلها بما يعرض الرحلة للتيه والضلال.
وهنا نلتقى بـ "أبي حازم سلمة بن دينار" يقول في بهاء عظيم:
"لأننا من أن أمنع الدعاء، أخوف على
من أن أمنع الإجابة".
أي تعبير نهائي لهذه الفكرة يفوق هذا التعبير ويسبقه.. إنه لا
يخشى أبدا أن ييسط يد الضراعة إلى ربه فلا تُسارع إليه يمين الرحمن
بكل برها ونجدتها وحنانها وعطاياها.
لا يخشى أن يقرع الباب فلا تفتح له أبواب.. فذاك أمر مفروغ من
تيقنه.

إنه على يقين من قول الله لعباده في حديثه القدسي:

"من مشى إلى شبرا، مشيت إليه ذراعا..
ومن مشى إلى ذراعا مشيت إليه باعا..
ومن أتاني يمشي، أتيت هرولة".

كما أنه على يقين من قوله تعالى لعباده في قرآنه العظيم:
«ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»

فتقبل الله أعمالنا وفتح أبواب رحمته وأبواب فضله لنا لم يكونا
 قط موضع تساؤل من أهل الله وأوليائه. إنما المشكلة ماثلة فينا نحن.
 فهل نحن أهل لأن نريد؟ ثم هل نريد حقاً؟ هذه هي المشكلة أما
 حين نريد ونحن للإرادة أهل، فإن كل قوى السماء والأرض توضع على
 الفور في خدمة ذلك العبد المشتاق الذي آثر الله وأراده، فكان له من
 الله ما يؤثر وما يريد!!.

وهنا نلتقى بـ "أبي وائل شقيق بن سلمة" يقول:
"نعم الرب ربنا لو أطعناه ما عصانا!"
 وهي عبارة تثير الدهش لا محالة من حيث الصياغة والتركيب فهل
 يجوز لنا أن نقول عن الله سبحانه: "ما عصانا"؟
 وما نحن بكل أبرارنا وقديسينا، حتى يطيعنا الله أو حتى
 يعصينا؟!

لكن أهل الله لهم لغتهم التي أذن لهم بها. ولهم أذواقهم
 وأحاسيسهم.. ومن ثم تعبيراتهم التي تستمد من أبعاد الأعماق وأرحب
 الآفاق.

إنهم يعرفون كم يدلل الله عباده..!!
 ألم يقل لهم:

"من أتاني يمشي، أتيته هرولة؟"

فمن نحن حتى يهرول الله إلينا، إذا جئناه مشاة؟! وألم يقل
سبحانه:

"قسمت الصلاة بيني وبين عبدي
نصفين، ولعبدى ما سأل"؟!

فمن نحن، حتى يرفعنا الله إلى هذا المستوى من المنزلة عنده، بل
من المنزلة معه؟!.

إن "أهل الله" يتحدثون بلغة قريبة، تُصور ما أترعت به نفوسهم
ومشاعرهم من فهم عن الله وحب له..!!

وهكذا قال "أبو وائل" رضى الله عنه

"لو أظنناه ما عصانا"!

* * *

ونعود إلى جوهر القضية، لنرى أهل الله وهم يدركون أعماق إدراك
جوهر العلاقة بين الله وعباده.

إن أبوابه مفتحة لنا جميعا - طائعين وعصاة، أبرارا وخطائين، إنه
بالليل وبالنهار ينادينا:

"هل من مستغفر، فأغفر له هل من
مسترزق، فأرزقه"؟

وهو يريدنا بكل ما فينا من طين ونور!! فلا يأس أبدا من فضله ولا
خوف قط من غياب جوده وعطائه وبره.
إذا نادينا، لبانا..

و "لو أطعناه، ما عصانا" ..

وعلينا إذن أن نريده بمقدار قطرة من بحار إرادته لنا، وحرصه علينا وحبه إيانا.

تلك هي المشكلة، ولا مشكلة سواها .. أن نريده نحن، ونهفو إليه، ونرتمي بين يديه، أما الذي بعد هذا، فهو مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فأولئك الذين يريدون وجهه، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.
ولكن كيف نريد..؟

* * *

هنا نلتقى بالشيخ "الواسطي" يقول:

"أول مقام ينزله المريد، هو، إرادة الحق بإسقاط إرادته"
ويقدم "أبو يزيد البسطامي" نفس الحقيقة في أسلوب أوضح فيقول:

"إذا قلت: يا رب أين الطريق إليك؟

جاءك النداء: خل نفسك وتعال"

فأهل الله هكذا يفكرون.. حين تريد أن تريد وجه الله، فمعنى ذلك أن حظوظ نفسك وهواك لا ينبغي أن يبقى لها في صدارة حياتك بل ولا في خلفيتها وجود.

إنك تحتاج إلى "البطارية" وتعتمد عليها في الظلام الحالك، أما في رابعة النهار ومهرجان الشمس، فإنك لا تفقد الحاجة إليها وحسب - بل إنك تنساها وتنسى وجودها.

كذلك، فأنت تشعر بذاتيتك، وبنفسك، عندما لا يكون معكما ثالث.

أما في حضرة ثالث، ورابع، وخامس، فإن شعورك العاكف على ذاتك يتوزع بعدد الجالسين معك وبمقدار أهمية كل منهم. وأنت في حضرة إنسان عظيم تشعر بالارتباك والخجل، حتى لتكاد تفقد تماسكك، كما أنك في حضرته تتنازل عن الكثير من خصائصك وعاداتك.

أفتريد أن تنزل في حضرة الله رب العالمين دون أن يطرأ عليك جديد يتناسب مع ضالة العبد وكبرياء الرب؟؟.

إن أهون صور هذا الجديد، هو تخليك عن نفسك.

"خل نفسك، وتعال!"

إنه دغدغة هواك.. ونبذه بعيدا، بعيدا، وذلك يعنى:

"إرادة الحق بإسقاط إرادتك"

إن إدلاج الإنسان ليأخذ مكانه بين "المريدين" يشكل في نظر أهل الله محاولة تتفجر رهبة وخطرا وقداسة.. فمعناها أنك تخنار بين الله، ونفسك.

انظر، كم هو رهيب ذلك الموقف، وكم هو مقدس!!

ليس ثمة تنكر ولا هروب.. إنما هو الله ونفسك.

ومن ثم قالوا، أو قال باسمهم "حاتم الأصم"

"إذا رأيت المريد يتلفت عن مراده

فاعلم أنه نذل "!!

وفى تعبير "حاتم" هذا تخفيف وترفق وتلطّف "فلتة المريد عن مراده، ليست فى عرفهم نذالة فحسب .. إنما هى ردة أيضا.. ها هو ذا "ابن الفارض" يقول مناجيا ربه ومولاه:

"وَلَوْ خَظَرْتُ لِي فِي سِوَاكَ إِردَاةً عَلَى
خَاطِرِي يَوْمًا قَضَيْتُ بِرَدَّتِي"

والتخلى عن النفس هنا كما يريد أهل الله، هو فى الحقيقة أمثل طريق لاستبقاء النفس وتعليتها، فالخروج بها من ظلماتها إلى دائرة الضوء الذى يفيئه ويعكسه جلال ربها ويهاؤه. بعث جديد لها فى أكمل نمط، وأحسن تقويم.

ومن ثم، ففى قولنا إن المريد يجد نفسه فى خيار بين الله ونفسه، تجوز كبير إذ أنه بين الرب والعبد، لا مجال بل لا وجود لهذا الاختيار ليس فقط لما بين المنزلتين من تفاوت يلاشى منزلة العبد ويدسها فى التراب.. بل ولأنه ليس هناك وجود حقيقى لغير الله.. ومن ثم، فليس هناك وجود لمن يدخل معه سبحانه فى دائرة الاختيار.

لذلك كانت فلسفة "أهل الله" فى التخلي عن النفس ماثلة على نحو أكثر فى أن تقدر الله قدره، وتعرف لنفسك عجزها، وحقيقتها.

وهنا يحدثنا "ابن عطاء الله السكندرى" يقول:

"كن بأوصاف ربوبيته متعلقا وبأوصاف
عبوديتك متحققا"

عندئذ ستختفى نفسك دون تكلف أو محاولة.. سينهار غرورها الكاذب، وتلاشى كبرياؤها الباطلة.. ستظهر حقيقتها كخلق ضعيف من

خلق الله.. كطفل فوق ثبح بحر عريض قامت قيامة أمواجه وليس إلى
نجاته من سبيل، تمتد إليه في هدوء واثق، يد حانية وقادرة، تقهر البحر
وتذل الموج وتجعل منه وهو الطفل الساذج المرعوب ميد البحر
والموج والخطر والهول!!.

أجل.. عندما تتعلق بعظمة ربك، وتتحقق من عجز نفسك، فآنئذ
تكون قد تخلّيت عنها، وتكون في نفس الوقت ولنفس السبب قد
وجدتها، وامتلكتها وربحتها.

ولكن أنى لإنسان أن يكون بأوصاف الربوبية متعلقا؟؟ أليس عليه
بادئ ذي بدء أن يتعرف إلى الرب؟. وأنى له أن يعرف من ليس كمثله
شيء، ومن لا تدركه الأبصار، ومن تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق
الأرض وتخر الجبال هدا؟؟.

هنا يقول "أهل الله": نعم هو ذلك وأكبر من ذلك، ولكنه مع هذا
أقرب إلينا منا.. وهو أوضح من كل موجود نلمسه ونشمه ونسمعه ونراه..
ها هو ذا "ابن عطاء الله" مرة أخرى يقول:

"كيف يُتصور أن يحجبه شيء، وهو الذى
أظهر كل شيء؟.

كيف يُتصور أن يحجبه شيء، وهو الذى
ظهر بكل شيء؟.

كيف يُتصور أن يحجبه شيء، وهو الذى
ظهر فى كل شيء؟.

كيف يُتصور أن يحجبه شيء، وهو الذى

ظهر لكل شيء؟ .
 كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو
 الظاهر قبل وجود كل شيء؟ .
 كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أظهر
 من كل شيء؟ .
 كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الأحد
 الذي ليس معه شيء؟ .
 كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أقرب
 إليك من كل شيء؟ .
 كيف يتصور أن يحجبه شيء، ولولاه ما
 كان وجود أي شيء؟ .
 ففي كل شيء ظهوره، وبكل شيء ظهوره، وأظهر من كل شيء
 ظهوره، بل هو الواحد الذي ليس معه سواه، إذ لا وجود حقيقيا لغيره،
 ومن ثم، فليس هناك ظهور حقيقي غير ظهوره، وليس هناك حضور
 حقيقي دائم غير حضوره!!
 إذن فما بالنا نعيش عميانا عن هذا الظهور، تائهين ضللا عن
 هذا الحضور؟ .

ماذا يحول بيننا وبين شهوده؟ .
 وماذا يحجبنا كل هذا الحجب عن رؤية وجوده!!؟ .
 هو ذا يتم كلماته الهادية فيقول:
 "ما حجبك عن الله وجود موجود معه،
 بل حجبك عنه توهم موجود معه!!"

إذن فالتيه الذى نعيش فى غياهبه وظلماته تيه صناعى موهوم إذ
ليس هناك أى وجود حقيقى لأى شىء مهما عظم حتى يشغلنا عن الله
ويحول بيننا وبين شهوده وملاقاته، إنما هى الأشباح التى تنسجها
أوهامنا فتحرمنا الرؤية، وتعمى علينا السبيل.

وأخطر هذه الأشباح جميعا شبح النفس "نفسى، ونفسك، وأنفس
الآخرين" بكل ما تموج به من أهواء وأطماع وتفاهات، وهكذا كان
طريقهم إلى الله ماثلا فى تلك الصيحة المباركة:

"خل نفسك، وتعالا."

* * *

وكم من "مريد" خلى نفسه ومضى.. تخلى عن شهواته وآثامه
وخطاياها، وقطع شوطا طويلا فى التطهير والتغيير، ولكن وهو على وشك
بلوغ المشارف السعيدة للملكوت العظيم، إذا به يسقط صريع آفة لم
يفتح عليها بصيرته، ولم يشحذ لها تصميمه.. تلك هى - غرور الطاعة
والعبادة!!.

* * *

هنا قاصمة الظهر لا ريب فيها.. وهذا الغرور رغم ارتكازه على
العبادة، آية ما لا تزال النفس تعج به من خبث واستعلاء.
ولهذا الغرور وجهان: وجهه الأول رضاك عن نفسك والافتتان بما
تأتیه من عبادة ونسك.. ووجهه الثانى استعلاؤك على الآخرين بفضلك،
بل وتعييرهم بما معهم من قصور ومساوىء.

إن "أهل الله" لا يمقتون نقيصة مثلما يمقتون هذا اللون الوقح

من الغرور.

ذلك أنه حين تسلم نفسك حقاً من ذاتيتها وأنانيتها، فلن تُدِلَّ بطاعة أبداً. بل ستظل راحة لله الذي وفقها، وهداها، وزكاها، ضارعة إليه ألا يسلبها هذه النعمة بعد إذ أعطاها.

ثم هي لن تُغيَّر بمعصية أبداً، لأنها تعلم علم اليقين أن ليس بينها في أوج طاعتها وبين الآخرين في أغوار عصيانهم سوى غلالة رقيقة من ستر الله وتوقيفه، لو تكشفت عنها لأصبحت والآ ثمين سواء!!.

من أجل هذا لم ينس "أهل الله وأولياؤه" هذا المنزلق الوعر والهوة الفاعرة.

ها هو ذا "أبو علي الهروي" رضى الله عنه وعنهم أجمعين يقول:
 "أعرف أن كل طاعة رضيته منك، فهي عليك، وكل معصية عيرت بها أخاك، فهي إليك!!".

إن خطر رضائك عن نفسك في هذا المجال، أنك بهذا الرضا، ومع تكراره واستمراره ستفقد الإحساس بالخطأ، ومن ثم تفقد حاسة الاتجاه إلى الفضيلة والخير والصواب.

ثم إن هذا الرضا إذا لم تحسن استخدامه، سيضع مكان الطموح إلى التكامل والخير الاغترار بما أصبت من تكامل وخير ومن ثم فالقعود عن طلب المزيد منهما والشوق إليهما.

أما تعيير الآخرين بضعفهم، فهو لا يكشف وحسب عن أن النفس قد ضلت طريقها إلى الله. بل وقبل ذلك، يكشف عن أنها لا تستحق

بحال، شرف السير على هذا الطريق!!

ولنصغ لفلسفة "أهل الله" تجاه هذه القضية يؤلفها لنا "ابن القيم"

فيقول:

"تعييرك أخاك بذنبه، أكبر إثماً من ذنبه، ففي
تعييرك هذا، تبدو صولة الطاعة وتزكية
النفس والمناداة عليها بالبراءة من الذنب .
ولعل انكسار الذي غيرته بذنبه، وإزراءه على
نفسه، وتخلصه مما أصابك من كبر وعجب
وادعاء، ووقوفه بين يدي ربه ناكس الرأس
خاشع الطرف، منكسر القلب، انفع له من
صولة طاعتك ومثلك بها على الله ."

"ألا ما أقرب هذا العاصي من رحمة الله !.

وما أقرب ذلك المدل من مقت الله !.

فذنوب تدلُّ به لديه.. أحب من طاعة تدلُّ بها
عليه.

ولأن تبيت نائماً، وتصبح نادماً.. خير من أن
تبيت قائماً، وتصبح معجباً، فإن المعجب
لا يصعد له عمل.

وإنك إن تضحك وأنت معترف، خير من أن
تبكى وأنت مدل..

وأنين المذنبين، أحب إلى الله من زجل

المسبحين، المدلين..

ولعل الله سقاه بهذا الذنب دواء استخرج به

داء قاتلا.. هو فيك وما تشعر!!

ويتقدم الإمام الجليل "أبو الحسن الشاذلي" رضى الله عنه ملخصا

القضية فى إيجاز بليغ فيقول:

"رب معصية أورثت ذلا وانكسارا

خير من طاعة أورثت عجبًا واستكبارا"

فغرور العبادة آفة يتوقاها "أهل الله" ويحاذرونها ويحذرون منها

ذلك أن ارتباط هذا الغرور بالطاعة كثيرا ما يعمى عن خطره بل كثيرا ما

يتنكر فى ثياب فضيلة تكريم الطاعة والتحدث بنعمة الله!!

يقول "إبراهيم النخعي":

"إنى لأرى الرجل يرتكب أمرا أكرهه، فما

يمنعنى أن أعيبه إلا مخافة أن أبتلى

بمثله"

أجل.. مخافة أن يبتلى بمثله، فهم أكثر من غيرهم إدراكا لما تعود

به خطيئة التالى على الله من قصاص سريع.

يقول الإمام "جعفر الصادق":

"من كشف حجاب غيره، انكشفت

عورات بيته"

"ومن سل سيف البغى قتل به"

ثم إن لهم حكمة عميقة فى رفض ذلك النوع من التالى والاعتذار..

فالناس عندهم لا يحرمون فضلا يغبطون عليه مهما تكن أخطاؤهم.
وإن حسنة واحدة تراها في إنسان لتشفع له بحسن الظن فيه، لأنها
لن تظل واحدة وغريبة.. بل ستنادي إليها غيرها من الحسنات.
يقول "عروة بن الزبير" :

"إذا رأيت الرجل يعمل الحسنة، فاعلم أن
لها عنده أخوات، وإذا رأيت الرجل يعمل
السيئة، فاعلم أن لها عنده أخوات"
ويرتفع "أبو أيوب السخيتاني" إلى قمة الإدراك السديد للقضية
حين يبتهل إلى الله داعيا، وقائلا:

"اللهم امترنا بالعافية"

فعافية الله سبحانه هي التي تصنع الفارق الشاهق بين الطائع
والعاصي.. بين المعافي بالهدى، المستور بالعافية، وبين المبتلى
بالذنب، المحروم من العافية.

* * *

إن الخلاص من هذا الغرور الديني - غرور الطاعة والعبادة ضرورة
لكي يصبح المؤمن صالحا للسير على طريق القوم الراكضين إلى الله..
و "أهل الله" يؤلونه أكبر قدر من اهتمامهم وعنايتهم، لأنه ليس هناك ما
يدل على بقاء سيطرة النفس وتألهها الكاذب مثل هذا النوع من الغرور.
ولقد كان التوقّي من هذا الغرور شيمة أهل الله جميعا، حتى
الذين لهم قدم صدق عند ربهم، لم يكونوا ليأمنوا مكر النفس
واغترارها بالطاعة.

هذا هو "الربيع بن خيثم" واحد من كبار التابعين وكان عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يراه إلا ويصيح:

"بشر المختين"

ثم يقول له:

"لو رآك رسول الله لأحبك"

هذا "الربيع" عليه رضوان الله، يطلب إليه أن يعظ الناس، فيكون جوابه:

"ما أنا عن نفسي براض حتى أتحول
عن ذمها إلى ذم الناس"
"وما أريد أن أكون من قوم خافوا
الله في ذنوب الناس وأمنوا عذابه في
ذنوبهم.."

ألا ما أعمقه .. وما ألقه ؟!

تُرى من هؤلاء الذين يخافون الله في ذنوب الناس، ثم يأمنون عذابه في ذنوبهم؟!

إنهم في أحسن مستوياتهم، وهو في نفس الوقت أسوأها حالا وعاقبة، ليسوا سوى ضحايا غرور الطاعة.. أنساهم غرورهم الأعمى بما في أنفسهم البشرية من ضعف، بل وأنساهم وزر الغرور نفسه، فأمنوا مكر الله تجاه أنفسهم.. بينما راحوا يدمدمون بوعيده ويتعجلون عذابه وبأسه

للآخرين!!.

وغرور العبادة هذا، عرض لمرض آخر يفطن إليه أهل الله،
ويقرعون لضحاياه أجرام النذير.

ذلك ما يعبر عنه "إبراهيم النخعي" فيقول:

"ما أحسب أحدا تفرغ لعيوب الناس إلا
من غفلة غفلها عن نفسه".

فهذا الغرور حين يخدع أصحابه عن أنفسهم و يقنعهم بأنهم انتهوا
إلى خير ما يرجون، ولم يعد في الإمكان أبدع مما كان، يعود فيلوى
أبصارهم شطر الآخرين حيث يسول لهم غرورهم أنهم فريق الإنقاذ
لأولئك الغرقى.. ثم ينفخ أوداجهم فيخيل إليهم أنهم الأطنهار والأبرار
وينظرون من عل إلى أولئك الخطائين نظرة تتضمن الاستخفاف بهم
والتلمظ بعيوبهم .

وذلك السلوك في نظر "أهل الله" برهان أكيد على أن صاحبه قد
غفل عن نفسه.. والغفلة عن النفس عندهم مهما يكن تقدمها الروحي
أدهى خطرا وعاقبة من غفلة رجل أعزل عن أسد يحاوره وبتربص به
ليجعله مضغة شهية بين فكيه وتحت أنيابه!!.

* * *

وليس معنى هذا الذي رأينا من موقفهم تجاه أخطاء الغير، أنهم
يُروِّجون للخطيئة، أو يتجاهلون خطر الذنوب والآثام.. فما شهدت
الحياة مثلهم أناسا تروعهم الهفوة العابرة، يأتونها وتكاد تجعلهم مزقا
وأشلاء.. إنما معناه أنهم وهبوا ذلك الحس اللطيف والدقيق الذي
يفرقون به بين أخطائهم وأخطاء الآخرين، فينمنا تأخذهم على أنفسهم

قسوة يرتضونها ويقدرّون عليها إذا بهم يحاولون بالرفق انتشال الآخرين من وهدة الإثم، رافضين أن يكونوا عوناً للشيطان عليهم، مكتفين بأن يرسلوا بين الحين والحين صيحة نذير يجلسون بها في صفوف الخطائين ليستيقظوا، ثم ليقفوا، وينظروا ويسمعوا.

أما مع أنفسهم، فلهم شأن آخر عجيب.. فالهفوة الصغيرة تؤرق صاحبها، وتجعله كجالس عند سفح جبل يوشك أن يساقط عليه ويطمره تحت أنقاضه.

وهم في ذلك معذورون، لأن ما ذاقوه وما عاينوه من مباحج القرب وأفراح الوصول يجعل حرصهم على استبقائه وخوفهم من فقدّه أمراً لا يصبر على صبر، ولا يقدر على أناة!!..

وهم يدركون أن أهواء النفس وقلّات الإثم هي المنزلق الرهيب إلى الردة والانتكاس - أي إلى ضياع النعيم الروحي الذي أدركوه إلى جوار الله.

وهم أدري الناس بعقبي الهفوات، ناهيك عن كبائر الذنوب، فقد سمعوا تحذير نبيهم وهاديتهم من محقرات الذنوب.

"إياكم ومحقرات الذنوب: فإنها تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه"

ثم إن مذاق الطاعة، ومناهج الوصول كشفت لهم نهايات الطعوم المريرة والقاتلة للذنوب، كبيراً كان أم صغيراً.

وحسن إدراكهم لمكايد الشيطان ومصايد جعلهم يحاذرون صغائر الذنوب أكثر مما يتوقعون كبارها، فلقد علموا أن الهفوات هي

التي تخدع المؤمن عن نفسها، وتتكر في ضعفها وضآلتها مستغلة استهانة مراكز المراقبة بشأنها!!

ومن هنا، كان توقيهم الهفوات عظيما.

هذا "إبراهيم التميمي" يقول:

"إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى، فاغسل يدي منه!!"

إن التكبيرة الأولى التي يدخل بها المصلي صلاته لا تحتاج إلى عناء ولا إلى مكابدة.. ومع ذلك فإن "أهل الله" يفتنون لأهمية، بل لحتمية الحضور الكامل قبل وأثناء أدائها.. وأدنى افتقار لهذا الحضور يجعل صاحبه صفراً.. "فاغسل يدك منه!!"

* * *

ولأنهم بصراء بالزمان وبالناس، ألفيناهم يحملون كل هذا الفزع من الهفوات ومن الأخطاء.
هذا "يحيى بن أبي كثير" يقول:

"لا تعجب ممن هلك كيف هلك ولكن

اعجب ممن نجا، كيف نجا؟؟"

أجل.. هنا نلتقى بواحد من أهم منطلقاتهم وأذكاها.. فمواقعة الخطايا والتردى من مهالكها، هما القاعدة.. والنجاة هي الأمر الذي لم يعد مألوفاً..

وهذه الكثرة الكاثرة من الهالكين بالإثم لم تعد موضع عجب، ولا مشار تساؤل.. إنما العجب حقاً ماثل في تلك القلة الناجية! فعندما تفاجأ قافلة عزلاء في أرض مسبعة بوحوش قاتلة تملأ كل شبر في الغابة،

ثم تنقض على ضحاياها بكل جوعها وعنفها وضراوة الغرائز فيها.. فلن يتساءل أحد عن الصرعى، لماذا صرعوا؟.. بل سيتساءلون عن الناجين، كيف نجوا؟؟.

والحياة بشروها.. والنفس بارتكاسها.. والفتن ومضلاتها.. كل أولئك غابة، يعيش فيها "أولياء الله" على خطر عظيم.

"فالناس هلكى إلا العالمون
والعالمون هلكى إلا العاملون
والعاملون هلكى إلا المخلصون
والمخلصون على خطر عظيم!"

* * *

وهم فى فرارهم النبيل من الخطايا والهفوات، لا يكادون يرون لأعمالهم الصالحات مقاما.
فـ "سليمان التميمي" ذلك العابد الأبواب، يقول له بعض إخوانه:
هنيئا لك ما وفقت إليه من طاعة وعمل صالح.. فيكون جوابه:
"لا تقولوا ذلك، فإنى لا أدري ما
يبدو لى يوم القيامة من ربي.
ألم تقرأوا قوله سبحانه: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ
مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾!!".

إنه لرائع، فهم "أهل الله" لحقائق الأشياء وسبرهم أغوارها إنهم لا يستهينون بحسناتهم تواضعا.. بل لأنهم يرون اللباب المستتر والمخبوء للقضية كلها.

فأعمالهم الصالحة - أولا - لا فضل لهم فيها، لأن الله هو الذى رزقهم إياها وهداهم إليها وأعانهم عليها.

ثم هى - ثانيا - صالحة بمقاييسهم هم وإحساسهم.. أما بالنسبة للمعايير التى يتقبل الله بها الأعمال فلا يدرون ماذا تكون؟. وهكذا فهموا الآية الكريمة، ثم زلزلوا بها زلزالا شديدا.

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾

ألم يسمعوا صديقهم الأول "أبا بكر" رضى الله عنه يسبقهم إلى ذلك بقوله المأثور:

"لا آمن مكر الله، ولو كانت إحدى رجلى فى الجنة"؟!

وهكذا أرقتهم مخاوف الذنوب، ولم تطمئنهم صوالح الأعمال.. هذا "يونس بن عبيد" يقول:

"إنى لأحصى مائة خصلة من خصال البر، ما فى منها واحدة"

وهذا "مالك بن دينار" يقول:

"إذا ذكر الصالحون، فأف لى، وأف!!"

أما "العلاء بن زياد" فيبشره صاحبه بأنه رآه الليلة فى منامه كأنه فى الجنة، فيجيبه قائلا:

"ويحك!! أما وجد الشيطان من يسخر به
غيرى وغيرك"؟!..

إنه أيضا ليس التواضع.. ولكنه اتهام النفس الآتى من وقدة المشاعر الوجلة من فلتات الخطايا، والمزدرية - فى جنب الله - كل الأعمال الصالحات.

ومن فلسفتهم تجاه الخطايا، أنها المسئولة عن انطفاء نور الشخصية وضياح بهاؤها.

يحدثنا "سليمان التميمي" فيقول:

"إن الرجل ليذنب الذنب، فيصبح وعليه مذلة"

فالذنوب التى نطن أن قد سترها علينا ظلام الليل، يفضحنا وإياها ضوء النهار..

والذنب - أى ذنب - وفى أى زمان يرتكب، وبأى مكان.. يترك علينا بصماته المهينة والمذلة.

و "أهل الله" الذين يقرأون الوجوه فى نظرة، أكثر الناس إدراكا ورؤية لهذه البصمات؛ من أجل ذلك فإن حديثهم عنها حديث خبير.

إن للذنب عندهم رائحة تفوح، وتشوهات تلوح!!

ولئن كانت هذه التشوهات تكسو ظاهر الشخصية بالمذلة والهوان، فإنها تملأ باطنها بالضباب والظلام.

يقول "ميمون بن مهران":

"إن العبد إذا أذنب ذنبا، نكت فى قلبه

بذلك الذنب نكتة سوداء - فإن تاب

محيت من قلبه فترى قلب المؤمن مجلوا

مثل المرأة - لا يأتيه الشيطان من ناحية
إلا أبصره .."

"وأما الذى يتتابع فى الذنوب، فلا يزال
ينكت فى قلبه حتى يسود جميعه، فلا
يبصر الشيطان من حيث يأتيه".

إنه يستلهم حكمته هذه من حديث مأثور لرسول الله ﷺ وتصلنا هذه
الكلمات بقضية أخرى لها فى الفكر الصوفى مقام عظيم، تلك هى قضية
"التوبة".

إن "أهل الله" الذين يهولهم خطر المعصية، بل والهوة إلى هذا
الحد الذى رأينا، تتفتح قلوبهم وينفتح وعيهم على رحاب الرحمة
والمغفرة فيرون من خلالها واتساعها ما لا يرى سواهم من بقية الناس.
يقول أحدهم، وهو "أوس بن عبد الله":

"ليس ثمة ذنب يقول الله له: إنى لا أغفرك
.. إلا الشرك به سبحانه"

لقد اختار "أوس" رضى الله عنه هذا التعبير الرقيق الشاعرى
المرهف، ليعكس شعوره الممتلى والفيض برحمة الله.

ليس هناك ذنب مهما جشم وغلظ يستطيع أن يتعاضم عفو الله
ومغفرته.

إن لحظة عابرة تحمل نوبة صادقة، لتدك دكا خطايا عشرات
السنين حتى تعود وكأنها ما كانت.. لا - بل:

﴿يبدلُ الله سيئاتهم حسنات﴾!..

الشرك بالله فقط هو الذي يحرم جواز المرور إلى عفو الله وهذا جزاء طبيعي وعادل، لأن هذا الشرك يتضمن إنكار وجود الله بالكمال والجلال اللذين وصف بهما ربنا ذاته. ومن ينكر وجود الله ويجحد كماله وجلاله ووحدانيته في إصرار أعمى وضلال مهين، يفقد الحق في رجاء آلائه ومغفرته. أما الخطايا دون الشرك فالتوايين منها لا رحمة الله فحسب، بل وحبه أيضا:

﴿إن الله يُحب التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

والتوبة عندهم، نزوع جاد، وتصميم حازم على تجنب الإثم وهجر الخطيئة.. والناس فيها درجات. يقول "عبد الله التميمي":

"شأن ما بين تائب يتوب من الزلات..

وتائب يتوب من الغفلات..

وتائب يتوب من رؤية الحسنات!!..

فهناك من يتوب من الذنب.. وهناك من لم يذنب، لكنه غفل بعض الغفلة، فحق عليه أن يتوب!!.. وثالث لم يذنب ولم يغفل.. لكن قد مر به لحظات رضا عن نفسه وشعوره بعبادته.. فهذا البار أيضا له توبة تناسب مقامه.

لهذا، كان للتوبة كذلك عندهم درجات.

يقول "أبو على الدقاق":

"إنها التوبة .. والإنابة .. والأوبة .."

فالذين على أول الطريق، لهم التوبة يتطهرون بها من ذنوبهم التي تثقل ظهورهم وذكرياتهم.

والذين في وسطه، لهم الإنابة، يتجهون بها إلى الله في حياء التقصير..

والذين وصلوا، لهم الأوبة يخبتون بها إلى الله في غبطة وشوق. وفريق من "أهل الله" يصل التوبة من الذنب بخشية الله وصلا وثيقا.. وذلك كيما يظل مقت التائب لذنبه قائما يحول بينه وبين مراجعته، أو حتى الرغبة في تذكر نشوته الكاذبة. فيقرر "سهل بن عبد الله" :

"التوبة ألا تنسى ذنبك"

و "أهل الله" .. لا ينظرون إلى التوبة باعتبارها مجرد نزوع محمود عن الذنب.. بل هي قبل ذلك وفوق ذلك إعادة صياغة وبناء للإنسان الرباني الفريد.

يقول "إبراهيم النخعي" رضي الله عنه:

"جلاء القلوب التوبة .. وإنها لتدع قلب التائب كالسيف النقي المرهف"

كما أنهم لا ينظرون إلى التائب كرجل مشبوه، يطارده ماض ينفر الناس من مصاحبته ومؤاخاته.. لا، بل "التائب الصادق" عندهم ربحانة من رياحين الله والجنة.. لا يحرصون على مصاحبته فحسب - بل

ويتقربون إلى الله بهذه الصحبة.. ويتلمسون عندها رحمة الله. هذا "إبراهيم النخعي" مرة أخرى، يوصي فيقول:

"جالسوا التوايين. فإنهم أرق الناس قلوبا.. ورحمة الله إليهم أقرب" ..

بل إن "أهل الله" عليهم رضوان الله وسلامه، لينفذون ببصائرهم إلى أعماق أبعاد، حين يربطون وجودنا الإنساني كله بنعمة الله وإرادته، وبفضله..

وبهذه النظرة الدقيقة والعميقة كم من ذنب، كان اختلاج صاحبه بوقعه، ثم صدق توبته منه معراجا إلى كمال روحى تعجز عن بلوغه طاعات كثيرة!!

هذا "ابن عطاء الله السكندري" يعطينا التعبير النهائى لهذه الفلسفة البارة المبرورة فيقول:

"ربما فُتح لك باب الطاعة، ولم يُفتح لك باب القبول، وربما قُضى عليك بالذنب، فكان سببا للوصول" !!..

ألا ما أروع، ثم ما أروع!!

فأنت قد توفق للطاعة.. ثم لا يفتح لك باب المثول، ولا تمنح جواز الوصول..

بينما آخرون اعترفوا بذنوبهم، وقذف بهم تفجر الندم الرهيب إلى أعلى، فإذا هم فجأة، وفي مثل لمح البصر فى أحضان النعمة والشهود والقبول..

ذلك أن الطائع قد يتكل ولو بحسن نية على الشواب المرصود للطاعة.. أما التائب فماذا له؟.. ومن له؟.. إنه بشعوره وبالشعور فيه يطرح نفسه عند عتبات رحمة الله الكبير المتعال. إنه بدموعه ويضراعاته، وبامتهانه ضعفه الوالغ فى الخطيئة، ويتجرده التلقائى والحقيقى من حوله ومن قوته إلى حول الله وقوته.. كل ذلك يجعله من الله جد قريب وجد محبوب!!.

وهم لهذا يعلموننا دائما حسن اللجوء إلى الله. هذا "إبراهيم النخعى" يدعو ويعلمنا أن ندعو قائلين:
 "رب، إن نفسى لم ترحمنى فارحمنى.
 رب، عافنى منها، وعافها منى.
 رب، أصلحنى لها، وأصلحها لى".
 وهذا "أبو حازم سلمة بن دينار" يواصل حديث القوم عن فلسفة الذنب، وفلسفة التوبة، فيقول:

"إن العبد ليعمل السيئة، ما عمل حسنة قط
 أنفع له منها، وإنه ليعمل الحسنة، ما عمل
 سيئة قط أضر عليه منها" ..

ويزيد القضية تفسيرا وتوضيحا، فيقول:

"... وذلك أن العبد يعمل الحسنة فيزهو
 بها ويتجبر، ويرى أن له بها فضلا على
 غيره.. ولعل الله بهذا يحبطها ويحبط
 معها عملا كثيرا..

ويعمل آخر السيئة فتسوءه .. ولعل

الله يحدث له بها وجلا، حتى يلقاه وإن

خوفها في جوفه لباقي..."

كذلك يواصل حديث القوم عن جلال التوبة وبهاء عقباها،

فيقول:

"عند تصحيح الضمائر، تغفر الكبائر

وإذا عزم العبد على ترك الآثام، أمه

الفتوح.."

"إذا عزم العبد على ترك الآثام، أمه الفتوح!!"

عبارة جليلة بقدر ما هي صادقة.. فالله البر الكريم لا ينتظر من

عبده أكثر من رغبة صادقة في الاتجاه إليه، والسعى لمرضاته..

هناك تأتية من كل مكان وتغد إليه من كل أفق معونات الله

وفتوحاته.

وعند استقامة النوايا والضمائر، تتلاشى الكبائر وتذوب وينادي

من سماء صافية وحانية.

"لو جئتني بملء الأرض خطايا لجئتك

بملئها مغفرة!!"

المطلوب كله، ندم صادق على ما فات.. وتوبة صادقة لما هو آت..

ويقول "الأسود بن يزيد النخعي" لأصحابه وتلامذته:

"تدرون ما الداء، وما الدواء، وما

الشفاء؟

الداء، الذنوب، والدواء، الاستغفار،
والشفاء، التوبة التي لا رجعة فيها ولا
نكوص

وكلما استقام الضمير، كانت التوبة ناجعة. ليس ذلك فحسب بل:
"إن العبد إذا خلصت سريرته، قال الله:
هذا عبدي حقاً"

هكذا قال "مطرف بن عبد الله".

إننا حين نفقد يقظة الضمير، نفقد معها ما هو شر من الإثم ومن
الخطيئة. ألا وهو الاستهانة بهما والاستخفاف بعواقبهما، فلا يبقى هناك
معنا أثارة من ندم تجعلنا على الأقل عارفين الخير من الشر، والإثم من
الطاعة.. كما تجعلنا موصولين ولو بسبب وآهٍ مع إرادة الرجوع
والتصحيح.

وهكذا تقارف الخطايا فرحين ولا مبالين.

ثم ماذا تكون العاقبة؟..

يقول "بكر بن عبد الله المزني":

"من يأتى الخطيئة وهو يضحك دخل
النار وهو يبكى"

وهو مصير عادل.. إذ لا يستوى من يغلبه ضعفه وهواه فيأتى الذنب
وهو مُفزعٌ ممرور.. ومن يأتيه جسوراً، سادراً، جذلان.

إن الاستهانة بعواقب الذنوب، ذنب أخطر من الذنب، لأنها - كما
يراها أهل الله - تجاوز العصيان إلى التحدى، لاسيما إذا تضمنت

الزهو بالخطيئة والإصرار على غشيانها.. ومن هنا كانت خطيئة السر أرجى للرحمة وأقرب إلى المغفرة من خطيئة الجهر والعلن.. شريطة أن تنجو من سلوك التبجح والإصرار.

وإضافة إلى خطر الذنب على صاحبه، أيا ما تكن صفة هذا الذنب. فإن الجهر به ينقله إلى مرحلة أخرى من مراحل الخطر تلك التي يعبر عنها "بلال بن سعيد" فيقول:

"إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا أهلها وإذا أعلنت، ولم تغير، ضرت العامة"

* * *

ويعود "أهل الله" إلى التذكير برحمة الله، والتبشير بعفوه، وذلك شأنهم دائما حين يعالجون أزمة السلوك الإنساني. فلنصع إلى هذه الكلمات الحلوة البارة يحدث بها "بلال بن سعيد" أيضا:

"إن لكم ربا، ليس إلى عقاب أحدكم بمسارع.. يقيّل العثرة، ويقبل التوبة.. يثيب المقبل إليه، ويشفق على المدبر عنه."

والحق أن فلسفتهم هذه تجاه الإنسان وخطاياهم لتتم عن أدبهم الرفيع تجاه الله، وليس فقط عن رفقهم الحاني بالإنسان.

ذلك أنهم يقدرون الله حق قدره، ويدركون كم نحن حتى بطاعتنا

عاجزون عن أداء شيء - أى شيء - من حقه وشكره. فالتقصير والقصور.
 هما شيمة الإنسان تجاه ما لله عليه من فضل ونعمة..
 من أجل ذلك، كان "أهل الله" أكثر الناس قلقاً من أعمالهم الصالحة
 مخافة أن يكلهم الله إليها، فلا تفى بشكر نعمة واحدة من نعمه عليهم..
 وكانوا كذلك أكثر الناس - حتى العصاة منهم - فرقا من مساءلة الله
 وحسابه.

ولعل أمتع وأجمع تعبير عن هذه الحقيقة نجده فى ذلك الابتهاال الذى
 كان يردده "أبو عمران الجونى" :

"اللهم اغفر لنا علمك فينا"!!

وبهذه المشاعر الذكية - أيضا - كانوا يفرقون بين أن يكون المؤمن
 صالحا.. وأن يجعله الله صالحا..

فأن يكون صالحا. أمر يرجع إلى جهاده واجتهاده الذى هو عرضة
 للخطأ والزلل.. وربما التوقف أو النكوص..

أما أن يجعله الله صالحا، فأمر مرجعه إلى توفيق الله واصطناعه:

"واصطنعتك لنفسى"

من أجل هذا كان دعاء "مالك بن دينار" :

"اللهم أنت أصلحت الصالحين،

فاجلنا صالحين"!!

و "أهل الله" إنما يَعُدُّونَ الأنفس بالخضوع ويطهرونها بالتوبة، لكي تحمل تبعات وجودها ممثلة في الحياة الطيبة التي ترعرعها الأعمال الصالحة والسلوك الفاضل المستقيم.

والعبادة عندهم شرف لصاحبها، وإعلان لجدارته بأن يكون إنسانا فليس بين رذائل البشر ما يمثل سفالة الروح ونذالة النفس مثل الغدر بالنعمة وعض اليد المبسوطة بالمعروف والجميل.

ونعم الله على عباده زرافات ووحدانا أوضح من الوضوح ذاته، وتحدى إرادته والتصامم عن ندائه ودعائه غدر بنعمه وكفران بفضله.

والذى لا يستطيع أن يرى نعم الله عليه، ولا يقدر على حفظ جميلها، لن يرى أية نعمة أخرى يسديها إليه الناس، وهو بالتالى أعجز عن أن يحفظ لمخلوق جميلا.

لذلك، فأهمية العبادة عند "أولياء الله" أنها تمثل أوضح ملامح الإنسانية فى الإنسان، الوفاء..

والذى لا وفاء له لربه، إنسان ضاعت منه إنسانيته فى زحمة الظلمات.

يقول "يزيد الرقاشى":

"ألا تحمد من تعطيه فانيا، فيعطيك باقيا؟
درهم يفنى، بعشرة تبقى إلى سبعمائة
ضعف..

"أما الله عندك مكافأة؟.. يطعمك..
ويسقيك ويكفيك.. يحفظك في ليلك
ونهارك.. ويجيبك في ضرائك"؟
ولقد سئل "الجنيد" عن الشكر فقال:

"ألا يستعان بشيء من نعم الله على
معصيته.."

فشكر الله عندهم ليس ذلك الترداد العفوى لكلمات الحمد، بل هو
العمل الصالح الذي يبرهن به العبد على وفائه للنعمة وولائه للمنعم..
يقول "أبو حازم سلمة بن دينار" :

"مثل من يشكر الله بلسانه ولا يشكره
بطاعته، كمثل رجل له كساء أخذ
بأطرافه، ولم يكس به جميع جسمه.. فهل
يقيه ذلك من حر أو برد؟"

من أجل هذا، ولأن العبادة تحية شكر يؤديها العبد لربه في تقصير
شديد وحياء أشد - كان لابد أن تجيء كريمة نقية - يرجو بها صاحبها
وجه الله في تحرر من الغرض العاجل .

أجل، إن العبادة تزكو عند ربنا، وينتشر عبيرها حين تكون قربة لا
صفقة يحاول العبد المساومة بها وعليها من أجل نفع رخيص.

هكذا يحملهم أديهم مع الله وحيأؤهم منه، أن ينظروا إلى العبادة.
يقول "زين العابدين - علي بن الحسين" رضى الله عنه:

"إن قوما عبدوا الله رهبة من العذاب،

فتلك عبادة العبيد.

وقوما عبدوه رغبة في غرض، فتلك عبادة

التجار.

وقوما عبدوه امتثالاً وشكراً فتلك عبادة

الأحرار!!"

ليس معنى ذلك أنهم يغمطون قدر من بعيد الله ويشابروا على طاعته

سواء كان حافز العبادة الرهبة أو الرغبة.. إنما معناه أنهم يضعون

المقياس المثالي للعبادة، والذي يجب أن يناط ببلوغه كل جهد المؤمن

وجهاده.

ذلك أن أهل الله بقدر ما كانوا يحرصون على أن يكونوا في الدنيا

شعثاً، غرباً، بسطاء، مجهولين، فقد كانوا في طاعة الله يتنافسون على

الذرى، ويتزاحمون حول القمم!!

هذا "جابر بن زيد" يوصي فيقول:

"إذا جئت يوم الجمعة فقف على باب

المسجد، وقل: اللهم اجعلنى اليوم أوجه من

توجه إليك، وأقرب من تقرب إليك، وأنجح

من دعاك وطلب منك!!"

إنك لن تجد منهم واحداً يسأل الله أن يجعله أوجه أهل الدنيا..

بل كل دعاء أكثرهم أن يجعله الله خامل الذكر بين الناس!!

أما فى مقام العبودية والعبادة، فهنا السباق على أشده والتنافس إلى أقصى مداه.. وهنا الإلحاح على الله من كل ولى لله وعبد صالح أن يرزقه أوجه العبادات وأسمى الطاعات!

* * *

و "أهل الله" رضى الله عنهم أجمعين، إنما يبدأ العمل الصالح عندهم من نقطة هى أبعد ما تكون عن العمل، وفى نفس الوقت أقرب ما تكون إليه وألصق ما تكون به.. بل هى صميمه وجوهره وأعصابه.. تلكم هى : النية.

النية روح العمل.. وعمل بغير نية، جسد بغير روح.
يقول "إبراهيم النخعي":

"فواتح التقوى، حسن النية"

وخواتيمها، التوفيق."

كما يقول:

"من أصلح سريره، أصلح الله علانيته"

فالنية، هى عبادة السريرة، وهى مفتاح العمل ونوره.
ولقد كان اهتمامهم بها، وعكوفهم على تحبيرها أمرا يفوق اهتمامهم بالعمل ذاته. بل لقد بلغ الأمر ببعضهم أنه حتى عند إلقاء الموعظة أو النصيحة لم يكن يحرك شفثيه إلا إذا كانت هناك نية صالحة ترسل الكلمات فى طريقها.

ها هو ذا، يسأل ذات يوم أن يعظ الناس، فيصلمت قليلا، ثم يقول:

"لا تحضرنى نية!!".

وتبدأ النية الصالحة بتجرّد العبد من حوله وقوته ملتصقا بتوفيق
الله مخلصا له الدين.

من أجل هذا كان "سعيد بن جبير" دائب الدعاء:
"اللهم إني أسالك صدق التوكل عليك
وحسن الظن بك..."
ويقول "يحيى بن أبي كثير":

"تعلموا النية، فإنها أبلغ من العمل"!!

فالنية إذن فن عظيم.. ولقد كان لهذا الفن من بين الأولياء
المعلمين أساتذة يلقنون أتباعهم أصوله، ويعلمون مريدتهم وتلامذتهم
كيف يثرون أعمالهم بالنيات الصالحة إثراء عظيمًا.. وحين تتبع
آثارهم وأخبارهم ترى عجايب حيث تبصر الكثيرين منهم لم يكونوا
يهمون بإنجاز عمل ما حتى يحشدوا له نيات كثيرة قد تبلغ الأربعين
والخمسين.. وهكذا ينتهي أحدهم من عمله الواحد وقد كتب له عند
الله أعمال كثر بعدد نواياه.

ولقد تعلموا ما للنية الصالحة من قدر من قول الله سبحانه:

"وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له
الدين".

أدركوا أنهم لم يؤمروا بالعبادة فحسب.. بل بالعبادة المترعة
بالإخلاص لله والتجرد له.. والإخلاص ليس عملا، إنما هو روح كل
عمل.. والنية الطيبة الصالحة هي مظهره ومخبره.
كذلك تعلموه من قول الرسول الكريم:

"إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى"

فهنا لم يدع الرسول عليه الصلاة والسلام أى شك فى أن النيات هى كل شئ فى الأعمال الصالحة، وزاد القضية وضوحاً وجلاء حين فصل القول فقال:

"فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله.."

ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه."

فهنا قوم مهاجرون.. مسافرون فى رحلة واحدة، وفى قافلة واحدة. ومع ذلك فقد يكون بين أحدهم وآخر من التفاوت فى المنزلة عند الله كما بين السماء والأرض بعدا.. ولماذا؟.. بسبب النية وحدها.

إن الهجرة - مجرد الهجرة - لم ترفعهم إلى مكانة المهاجر إلى الله إلا بقدر ما فيها من نية التوجه إلى الله والإخلاص له.

وهنا نلتقى بـ "مالك بن أنس" رضى الله عنه يقول:

"إن لمن يسجد لله، ومن يسجد للصنم صورة واحدة فى سجودهما.. ومع ذلك، فالأول عابد، والثانى كافر.. لقد فرقت بينهما النيات."

ولقد كان من اهتمامهم بالنية أن صنفوا في فضلها وفي فنها المصنفات.

ولعل كتاب "ابن الحاج" - المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات - والمسطور في أربعة أجزاء.. لعله آية على ما للنية في حياة الإيمان والمؤمنين من شأن وخطر.

يقول "الإمام الغزالي" رضى الله عنه.

"النية والعمل، بهما تمام العبادة"

"فالنية أحد جزئيهما، لكنها خير الجزئين".

ويقول "سالم بن عبد الله":

"أعلم، أن عون الله للعبد بقدر نيته، فمن

ثبتت نيته، تم عون الله له، ومن قصرت

عنه نيته، قصر عنه عون الله بقدر ذلك".

علام يدل كل هذا الولاء للنية عند "أهل الله"؟ إنه يدل - أول ما

يدل - على أن أولئك الأبرار كانوا أفذاذا يتعاملون مع قلب الأشياء..

وليس مع الوهلة العابرة والسطح المنظور.

ويدل على أنهم كانوا أساتذة في فن إثراء الحياة!! حقا إن الدين

الخالص، وإن عبادة الله الواحد القهار لا يدرك سموهما المجيد إلا

من خلال علاقة الأبرار من الناس والمتقين من البشر بالدين وبالعבודה.

إن النظرة السطحية إلى موقفهم من النوايا وربط الأعمال بها

لتحرم صاحبها من اكتشاف الذكاء العليم، بل النور العظيم الذي

كانت تحمله بصائر أهل الله وأوليائه.. هؤلاء الشعث الغبر الأبرار الذين لا تقع عليهم الأعين من زحام الوجاهة الكاذبة والتبذخ الفارغ المغرور.

فإذا كانت الحياة الإنسانية لا تقوم إلا بالعمل الصالح والجد والبناء، فإن إثراء الحياة بهذا العمل، هو أمثل السبل لإنمائها وإريائها ودعم تقدمها نحو المصير.

وشحن الأعمال بالنوايا الطاهرة والفاضلة توسيع غير محدود لمساحة نفعها ونفوذها.. كما أنها تجريد للعمل ذاته من شوائب الارتكاس وهوائف الانحراف.. ثم إنها صقل رائع لشخصية الإنسان الذى يصدر عنه العمل.. إذ هو بهذه النوايا النظيفة المستقيمة التى تواكب دوما أعماله وحياته، إنما يجدد باستمرار هواء عقله وروحه، وإنما يستبقى لوجوده كله مناخا مترعا بكل بواعث العظمة والظهر والاقترار.

تري، هل هناك ما يمنح الحياة الإنسانية رشدًا ومجدًا أكثر من هذا السبيل؟..

وأليس "أهل الله" بموقفهم هذا، إنما يمثلون ذكاء فريدا، ويحملون بصيرة نافذة، ويقدمون للإنسان وللحياة أمثل الأفكار والمناهج التى تشد أزرها، وتؤمن مصيرهما؟؟!!

* * *

إن نوايانا هى شخصياتنا الباطنة، فالنية النقية الصالحة تدلنا على وجود قلب نقى صالح وراءها، والعكس قائم..

واهتمام "أهل الله" بالنوايا إذن يتضمن، أو يتضمنه اهتمامهم بالقلوب.

يقول "أبو إدريس الخولاني":

"قلب تقى فى ثياب دنسة، خير من قلب
دنس فى ثياب نقية".

* * *

والعبادة عندهم قوامها الهمة العالية والعزم الرشيد.. ومن ثم كان
المثابرون عليها أبرارا.

ذلك أن العقبات أمامها وأمامهم كثيرة وشاقة.
يقول "مالك بن دينار":

"ما من أعمال البر عمل إلا ودونه عقبة،
فإن صبر صاحبه أفضت به إلى رَوْحٍ ونعيم..
وإن جزع رجع"

ومن شافية الفهم والعبارة، قوله رضى الله عنه "أفضت به إلى روح
ونعيم، فالعقبة هنا وليس العمل هى التى ستفضى به إلى الرضوان..
ولماذا؟ لأن مكابדתه هذه العقبة وعدم الهروب منها والاستسلام لها قد
تحولت - أعنى المكابدة - إلى فضيلة أخرى قد تفوق العمل البار الذى
كان يهم بإنجازه.. كما أكسبت هذه المكابدة روحه من الصلابة والصقل
والنور ما جعلها نعمة سابغة بعد أن كانت تبدو نقمة صماء وعقبة
كأداء!!.

ومن عقبات العبادة الكسل والضجر.. و"أهل الله" ينظرون إلى هاتين الآفتين نظرة كلها حذر وتربص، فهم يدركون من رياضتهم وتجربتهم كم يتنكر الضعف الإنساني في الكسل وفي الضجر فيقضى بهما على أبهى الأعمال وهي لاتزال بعد في عمرها الغض وأيامها الباكرة.

يقول "محمد الباقر" الإمام المرمى:

"يا بنى.. إياك والكسل والضجر، فإنهما مفتاح كل شر، وإنك إذا كسلت، لم تؤد حقاً، وإذا ضجرت، لم تصبر على حق".

أرايتم عمق الرؤية، وبعد الفهم، ودقة التعبير؟

إننا بالكسل، لا نؤدى حقاً ولا واجباً..

وإننا بالضجر لا نصبر على حق ولا على واجب..

وهذا أمر يُشاهد في حياة الناس، حتى بالنسبة للواجبات التي تفيء علينا مغانم عاجلة.. فكيف إذن بالعبادات التي تتطلب التبتل والصبر الطويل؟..

والضجر في العبادة، كثيراً ما يكون وليد الوسواس الشيطانية الخبيثة.. فالعابد لا يكاد يبدأ مسيرة عبادته حتى تفور في نفسه وتموج وتتفجر كل رواسب الهوى وكل إغراءات الشيط.

و"أهل الله" لا يجزعون لهذه الظاهرة.. بل يفرحون بها ويستبشرون، لأنها علامة على أن كفاحهم الروحي إنما يضرب في الصميم وعلامة على أنهم بدأوا يكسبون انتصارات حقيقية تغرى بهم وبها، النفس والشيطان.

هذا هو "العلاء بن زياد" يتحدث:

"إن اللصوص إذا مروا بالمكان الخرب
المهجور، لا يُلَوُّون عليه ولا ينظرون إليه،
فإذا مروا بالبيت العامر الممتلئ تربعوا
به واثمروا عليه".

رائع هو الآخر، هذا الأواب القديس فى عمق ذكائه، وجمال
تصويره.

فاللصوص فعلا لا يعبأون بمكان خرب ليس فيه ما يُسِيل لهم
لعبا.. وما رسم لص قط محاولة لاقتحام خرابة مهجورة.. إنما هو يخطط
ويقرر ويدبر ثم يخاطر ويتسور البيوت العامرة بالمغانم والمتاع. إن قلب
المؤمن السائر إلى الله، هو ذلك المكان العامر بالمغانم، تحاول إغواءه
كل قوى الشر من نفس وشيطان وإخوان سوء.. ومن ثم فهذه القوى تقف
عنده وتحاول اقتحام حماه وتعمل يد التخريب والنهب فيه، ومن هنا لا
ينبغى لصاحبه أن يضجر أو يجزع ويأس.

إن "أهل الله" يهيئون به أن اصمدوا ثبتوا واستبشروا مضى فى
طريقك قدما.. إن اللصوص، لصوص الإيمان والخير لم يتسوروا قلبك
إلا لأن بداخله كنزا ثميناً.. هو كل نوايا الهدى وخطة الحياة الجديدة
الطاهرة التى تسير بها إلى الله العلى القدير.. ولو كان قلبك خربا، ما
وقفوا عنده، ولا بذلوا أى جهد فى غزوه واقتحامه.

* * *

ومما يساعد العبد المؤمن على اقتحام هذه العقبات إدراكه
جلال مسعاه ونبل كفاحه.
يقول "مورق العجلى":

"المستمسك بطاعة الله حين يجبن الناس
عنها، كالكار بعد الفار".

أجل.. هذا بطل المعمعة، ورجل الرجال.. هذا الذى يقهر إغراء
النفس وإغراء البيئة وإغراء الإثم ليقف ولو وحيدا إلى جانب الفضيلة
والخير والعمل الصالح.

و "أهل الله" لا ينظرون إلى العمل الصالح باكتراث متواضع.. بل
هم مدركون تماما لما يتطلبه من جهد جهيد، وعناء شديد.
يقول "إبراهيم بن أدهم":

"إذا أردت أن تقترب من درجة الصالحين:

- فأغلق باب الراحة، وافتح باب الجهد
- وأغلق باب النوم، وافتح باب السهر
- وأغلق باب الأمل، وتأهب للموت..

ولم تكن هذه النظرة لتقاعسهم عن العبادة أو تخيفهم منها.. بل
على العكس كانت مشاعرهم تجاهها مشاعر العاشق المشتاق، وكان ما
تتطلبه من جهد هو الذى يأخذ بأفئدتهم إليها، ويضرم غرامهم بها. فهم
عند أول خطوهم على الطريق قد عشقوا الخطر، وكرسوا أنفسهم له.
وهذا هو ابن النوبة الجسور "ذو النون المصرى" يقول فى هذا
المعنى الكبير:

"ما هالنى أمر إلا ركبته".

كذلك مما يشدُّ أزر العابد في تحدى تلك العقبات إدراكه الحق بأنه يقاتل في معركة رابحة لا محالة، فهو مهما يطل أمد نضاله ضد الهوى والنفس والشيطان سيتلقى من ربه الكبير المتعال جائزة فوزه وتفوقه، ويوم يلقي الله سبحانه سيخلف وراءه كل ما كان ملك يمينه من مال وجاه ودنيا.. وسيصحبه في يوم زفافه إلى الجنان صديق واحد وفى وحميم.. ذلكم هو عمله الصالح الذى عاناه فى الدنيا ثم ربحه واجتناه!.

هكذا يحدثنا "عبيد بن عمير" فيقول:

"كان لرجل ثلاثة أخلاء، نزلت به نازلة فبدأ بأقرب الثلاثة إلى نفسه يناشده العون فتكر له وتخلي عنه..

ثم ذهب إلى الثانى، فأمدّه بقليل من العون ثم تركه..

وذهب إلى الثالث، فهب لنجده وقال له:

أنا معك حيث تذهب وأيان تكون..

فالأول، هو المال.. يخلفه الإنسان لأهله ولا يتبعه منه شىء..

والثانى، هم الأهل والعشيرة والصحب.. يشيعونه إلى قبره، ثم يتركونه وحيداً.

والثالث، عمله الصالح، يبقى معه إلى يوم البعث والنشور!!

هذه الصورة الرامزة الذكية، هى الحقيقة كاملة.. فليس هناك من

أخلاء الدنيا على كثرتهم من يصحبك ويبقى معك سوى عملك.. فهل

يشق جهد، أو يغلو ثمن أو تعز تضحية لانتقاء هذا الصديق الذي سيكون رفيق أبد بأسره، وليس رفيق عمر عابر وسريع؟!

* * *

و "أهل الله" - كما ذكرنا - يربطون العمل بالمشاورة والدأب..
فمواصلة العبادة خير سبيل لشحذ إرادة الخير والهدى..
وإذا كانت البطالة في أعمال الدنيا مفسدة ونقيصة، فهي في
واجبات الدين وأعمال الآخرة أكثر نُكراً.
يقول "فرقد السبخي" في حكمة عميقة وتهكم ذكي:
"إنكم تلبسون ثياب الفراغ والراحة، قبل
أن تعملوا"

وهذا السلوك يرفضه "أهل الله وأولياؤه" يرفضونه فكراً وسلوكاً،
وإن أبلغ توبيخ يوجه لصاحبه لهو هذه العبارة البارعة.
وإننا لنرى منهجهم في العبادة والطاعة، فنرى عجباً..
هذا "حسان بن أبي سنان" يسأل في مرض موته، ماذا تشتهي؟.. فيجيب:
"ليلة شاتية طويلة أحبي ما بين طرفيها في
عبادة الله"!!..

وهذا هو "الربيع بن خيثم" يصاب بالفالج، ولا يستطيع الانتقال
إلى المسجد إلا بمشقة بالغة، وصلاته في بيته هي رخصة مرضه، بل
ضرورة مرضه.. ومع ذلك يأبى إلا أن يخرج إلى المسجد يهادي بين
رجلين. ويقول:

"إنى لأعلم أن الله يرخص لى بترك الجماعة
فى المسجد.. ولكنى أسمع المؤذن ينادى،
حى على الفلاح.. وجدير بمن نودى إلى
الفلاح أن يجيب ولو زحفا.. ولو حبوا!!

ألا رضى الله عنهم ورفع عنده درجاتهم.. هؤلاء الذين قدروا الله
حق قدره، وأحبوه حق حبه، فلم يقنعوا فى عبادته سبحانه إلا بأنفس
وأبهى ما تملك القدرة البشرية من عمل وبذل وإخبات..
لقد قال "شميط بن عجلان":

"رأس مال المؤمن دينه.. لا يُخلفه فى
الرحال، ولا يأمن عليه الرجال"

وهكذا حمل "أهل الله" دينهم فى قلوبهم، فلم يخلفوه فى رحل،
ولم يجاملوا فيه أو يساوموا عليه.

وهم فى مزاولتهم واجبات الدين وطاعة الله، تتنوع مشاربهم،
ففریق يغار ثم يغار على عبادته فيتكتمها ويخفيها، تحرياً لأقصى
درجات التبتل والإخلاص.

فهذا "منصور بن المعتمر" يقضى ليله أشعث أغبر، يصلى ويفزع
ويبكى، فإذا أصبح وطلع النهار كحل عينيه، ودهن رأسه، ولبس أجمل
ثيابه وخرج إلى الناس..!!

وهذا "الربيع بن خيثم" كان عمله سرا كله، وإن كان الرجل ليقدم
عليه، وقد نشر المصحف أمامه يقرأ منه، فلا يكسأ يبصر القادم حتى
يغطيه بثوبه..!!

وهذا "زين العابدين، على بن الحسين" كان من أكثر الناس عطاءً، ومع ذلك كان بسبب إمعانه في إخفاء قربته وعطائه يُرمى بالبخل، فلما مات عرف الناس فجأة أنه كان يقوت مائة بيت وأسرة في المدينة وحدها.. وعرفوا أنه كان يحمل بنفسه وعلى كاهله وظهره أجرة الخبز ليوزعها في ظلمة الليل على المساكين!!

وتحدث المؤرخون أن أناساً من أهل المدينة كانوا يعيشون ولا يدرون من أين يأتيهم معاشهم، ولا يعرفون من هذا الذي يطرق أبوابهم بالليل حاملاً إليهم ما يحتاجون حتى مات "زين العابدين على بن الحسين حفيد رسول الله" فلم يعد الطارق يطرق أبوابهم ولم تعد الخيرات تحمل في جنح الليل إليهم. وهكذا قال قائلهم:

"ما فقدنا صدقة السر إلا يوم مات على بن الحسين"

وثمة فريق آخر لا يرى بأساً في إظهار عبادته الشامخة وعمله الشاق، تحدثا بنعمة الله عليه. وارساء لقواعد القدوة الصالحة، ونشراً لأعلامها:

يقول "ربيعة بن أبي عبد الرحمن":

"لقد رأيت مشيخة بالمدينة وإن لهم لغرراً وعليهم المعصفر والمورد، في أيديهم مخاصر، وفي أكفهم أثر الحناء. ومع ذلك فإن دين أحدهم أبعد من الثريا لا تناله رغبة ولا رهبة".

وهذا "محمد بن المنكدر" .. يقوم الليل عابدا مصليا ثم يذكر الله بصوت مرتفع جهير فسئل في ذلك فقال:
 "إن هناك من يرفعون أصواتهم بالشكوى،
 وأنا أرفع صوتي بالنعمة والشكر".

* * *

وقد كانوا يتفنونون في أعمالهم الصالحات حتى تخرج في أبهى صيغة وأحسن تقويم..

وما نراه نحن مبالغة منهم وتطرفا، بل وتعذيبا لأنفسهم وحرمانا لها، لم يكن في الحقيقة سوى النزوع الشديد والنبيل لإتقان العمل، واستفراغ الوسع في تقديم أروع ما يستطيعون وما يملكون لربهم العلى الأعلى.

هذا "صفوان بن سليم" يقضى الليل في صلاة وعبادة.. في الشتاء يتعمد أن يقوم فوق سطح الدار، وجسده يتلقى وخز الزمهرير، وفي الصيف يصلى ليله في حجرة مغلقة، لا تعبرها نسمة ملطفة.. ثم يناجى ربه قائلا:

"هذا الجهد من صفوان، وأنت أعلم"

إنه يعتذر إلى الله، لأنه لا يجد أو لا يقدر على وسيلة أشق يظهر بها أمام ربه أشعث أغبر مسكينا، حارما نفسه من الراحة، ساحقا تحت قدميه كل شهوات النفس وطيبات الحياة.

وهذا "الأسود بن يزيد النخعي" يصوم حتى يخضر جسده ويذوى.. ويحج في حياته ثمانين حجة، وكان واحدا من ثمانية من

التابعين انتهت إليهم إمامة الزهد.. ومع هذا فهو يبكى فى مرض موته
وينتحب، ويشفق عليه أهله وصحبه، فيقول لهم:

"... ومن أحق بهذا منى، والله لو ضمنت

المغفرة من ربي.. لظلت تؤرقنى هموم
الحياء منه"!!

إن كل جهد يبذلون، وكل معاناة.. وكل تضحية، وكل ما يأتون
من عبادة وتقوى لا يمثل فى فطنتهم ويقينهم أى مستوى مما يرجون
ويطمعون أن يتقربوا به إلى الله من عمل!.. ذلك أنهم يحملون همما
جسورة عالية، يزيد من قوتها واقتدارها وحسن توفيقها أنها تحيا فى
الخير وتعمل له.

وصدق "يزيد الرقاشى":

"للأبرار همم تبلغهم أعمال البر، وكفاك
بهمة دعتك إلى خير خيرا" ..

و "أهل الله" لا يعبدون الله اعتباطاً، ولا يمارسون العمل الصالح
عن جهالة.. لا، بل أنهم ليقدسون المعرفة والعلم والحكمة ويسعون
إليها جميعاً بنفس القدر الذى يقдسون به العبادة والطاعة.
يقول "ميمون بن مهران":

"العلماء هم ضالتي فى كل بلد.. ولقد
وجدت صلاح قلبى فى مجالسة العلماء"

ذلك بأنه بغير علم لا تكون ثمة عبادة صحيحة، بل إن خشية الله
وهي روح العبادة، وجوهر السلوك لأولياء الله.. هذه الخشية نفسها، لا
يعرفها حق المعرفة ولا يقدر عليها تمام القدرة سوى العلماء، وإنهم
ليفهمون تماما ما تعنيه الآية القرآنية الكريمة:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

يقول "قتادة بن دعامة":

"باب واحد من العلم يحفظه الرجل، يبتغى
به صلاح نفسه وصلاح الناس، أفضل من
عبادة حول كامل"

وهنا يكشف لنا "قتادة" عن قيمة العلم في حياة العابد.. كما
يوضح نوع العلم الذي عنه يتحدثون..

فهو ليس ذاك الترف الذهني الذي يتخذه أصحابه وسيلة ليكسبوا
به صلف الجاه، أو أكثر المال، أو مناصب الحياة.. إنما هو الذي يبتغى
به صاحبه "صلاح نفسه وصلاح الناس".

سئل "محمد بن المنكدر" عن التقوى، فقال:

"أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله"

فالعلم عندهم ضروري للتقوى.. وهو نورهم على الطريق، وزادهم
في السفر.. ومن هنا، كان تحصيله وإخلاص النية في تحصيله من صميم
العبادة والتقوى، وهذا يحتم التماسه من مصادره القويمة من أجل
الوصول إلى أهدي طرائق العبادة والعمل الصالح.. أي أن يكون
المرجو به وجه الله وحده.

يقول "ميمون بن مهران":

"إن فيمن يبتغى هذا العلم من يتخذه
بضاعة يلتمس بها الدنيا، ومنهم من
يلتمسه ليشار إليه، ومنهم من يلتمسه
ليمارى به ويجادل. وخيرهم من يتعلمه
لله.."

من أجل هذا، كانوا يخافون الكلام حتى في العلم والبر، مخافة
أن تستدرجهم حلاوة الحديث إلى الزهو أو الرياء.
يقول "سعيد بن فيروز":

"لأن أكون في قوم أتعلم منهم، أحب إلى
من أن أكون في قوم أعلمهم"!!..
ويقول "محمد بن المنكدر":

"إن المتكلم يخاف مقت الله، وإن
المستمع يرجو رحمته".

بل لقد بلغ بهم الأمر أن جعلوا من الكلام والصمت قضية شغلت
تفكيرهم. فمنهم من يوصى بالصمت إلا في الضرورات، مستهدين بوصية
الرسول عليه صلاة الله وسلامه:

"أمسك عليك لسانك".

وقوله عليه السلام:

"وהל يكب الناس في النار على مناخرهم
إلا حصائد ألسنتهم"!!..

ومنهم من يحض على الحديث مادام دعوة إلى خير، ومادام صاحبه لا يرائي به ولا يكذب.

يقول "أبو عبد الله بن أبي زكريا":

"طلبت تعلم الكلام فأدركت منه ما أريد،

وطلبت تعلم الصمت، فشق على ذلك!!

هو - إذن - كما نرى من أنصار الصمت الحكيم الذي أحبه "أهل

الله" ليكون سبيلهم إلى التفكير والتدبر، وسبيلهم إلى الارتفاع عن شبهات اللغو والزهو والافتتان.

إن "أهل الله" مشغولون بالتحدث مع الله على طريقتهم.. فصمتهم

ليس خواء.. بل هو عامر ممتلئ بأذكي التأملات الباطنة في دين الله ودنيا الناس.

ومع تعدد وجهات نظرهم في هذه القضية، جاء منهم من اكتشف

الوحدة الكامنة في التعدد المائل:

ذلكم هو "بشر بن الحارث" الذي قال:

"إذا أعجبك الكلام، فاصمت وإذا

أعجبك الصمت، فتكلم."

أجل.. فالمقصود كله ألا يكون حديثك، كما هو صمتك، تعبيراً

عن هوى مفتون، ونية غير صالحة.

إن العلم عندهم هو ذلك النور الذي يهديهم إلى خير ما يحب الله

لعباده من فضيلة وتقوى.

من أجل ذلك، فالعلم الذى ينشدون يتضمن القدوة السامقة
والصالحة.

يقول "شميط بن عجلان":

"يعمد أحدهم فيقرأ القرآن، ويطلب
العلم، حتى إذا علمه أخذ الدنيا فضمها
إلى صدره وحملها على رأسه، فنظر إليه
جهلة العامة، فقالوا: هذا أعلم بالله منا..
فلو لم ير فى الدنيا ذخيرة ما أقبل عليها..
فيتهاكون كما تهالك، فمثله كمثل الذين
قال الله عنهم: ومن أوزار الذين يضلونهم
بغير علم.."

إن وظيفة العلم عند "أهل الله" أن يدل الإنسان على الله، ويرشده
إلى طريق التقوى، ويصاحبه فى رحلة الكمال الروحى حتى يلقى الله..
فما لم يشمر العلم التقوى والورع والحياة الصالحة، فلن يكون إذن سوى
لغو فارغ.

يقول "زياد بن حرير الأسلمى":

"ما فقه قوم لم يبلغوا التقى"

ويرى "أهل الله" أن العلم ليس سلاحاً ضد الجهل وحده.. بل
وضد الهوى قبلاً.. وهنا الدور الإيجابى والفعال للعلم والمعرفة.
يقول "مالك بن دينار":

"لا تطلع شمس يوم إلا ويتنازع الإنسان
علمه وهواه. فيوم يغلب العلم الهوى فذلك
يوم غنمه، ويوم يغلب الهوى العلم، فذلك
يوم جرمه"

إن "أهل الله" ينظرون للعلم واللفقه خاصة كقانون للعبادة ومنهج
لها.. وكل سائر إلى الله ومعه نور الفقه والعلم حرى أن يبلغ المرفأ
ويعانق الغاية.
يقول "محمد بن كعب القرظي":

"إذا أراد الله بعبد خيراً رزقه خلالاً ثلاثة:
فقهاً في الدين، وزهادة في الدنيا، وبصراً
بعيوبه"

ويحدد "عطاء بن أبي رباح" مشاهد العبادة وذكر الله عز وجل،
بمجالس العلم والفقه، فيقول:

"من جلس مجلس ذكر كفر الله عنه مجالس
السوء. قيل: وما مجالس الذكر؟..
قال: مجالس العلم، تعرفون بها الحلال
والحرام، وتعرفون كيف تصلون، وكيف
تصومون، وكيف تتعاملون."

لكنهم حريصون في نفس الوقت، ولنفس السبب ألا يتحول الفقه
والعلم إلى قضايا جافة أو مجرد ثراء ذهني. بل لابد له أن يظل قائماً
بوظيفته في هداية السلوك وإعلاء الروح.

يقول "عمرو بن قيس الملائي":

"حديث يرقق قلبي، وأتبلغ به إلى ربي
أحب إلى من خمسين قضية من قضايا
شريح"!!

لقد كان "شريح" فقيها كبيرا كما كان من العابدين الصالحين..
ومع ذلك، فقد اختاره "عمرو بن قيس" مثلاً، لا تعريضا به بل مبالغة في
التحذير من الفقه الذي يتعلمه الناس ليكونوا مجرد فقهاء لامعين..
وعلماء مبرزين..

ويتقدم "أبو مسلم الخولاني" ليقول لنا:
"العلماء ثلاثة..

- عالم عاش بعلمه وعاش الناس معه..
- وعالم عاش بعلمه، ولم يعيش الناس معه..
- وعالم عاش الناس بعلمه وأهلك نفسه..

وبهذا يحدد "أهل الله" دور العلماء - أن يحيوا بالعلم ويحيا

الناس معهم به..

أما حياتهم بالعلم، فبأن يكونوا صورة صادقة وكاملة لما يهدي إليه
العلم من صلاح ونور.

وعندئذ، عليهم أن يطرحوه على الناس، ليحيوا هم الآخرين به،
مثل حياتهم بالقدوة الصالحة التي يرفعها لهم علماءهم العاملون
الأبرار..

ولم يُحرم "أهل الله" سعة الأفق أبدا.. فإن معهم من نور البصيرة وثراء التجربة، وسماحة الروح ما يجعلهم أكثر الناس حظا من حسن التقدير، ورحابة التصور.

فالعالم عندهم، مطالب بأن يحقق علمه في حياته وسلوكه، ثم يعلمه الناس ويعينهم على تحقيق ما علموا في حياتهم وسلوكهم..

بيد أنهم يدركون في نفس الوقت أنه إذا عجز الإنسان عن اكتساب فضيلة وكان قادرا على دعوة الآخرين إليها ممن قد يقدرّون بعلمه على اكتساب ما عجز هو عن اكتسابه بعمله، فليس له أن يسكت.. إنما عليه البلاغ..

وهم في هذا، آخذون بقول الرسول ﷺ:

"رُبُّ مُبْلَغٍ، هُوَ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ"

يقول "زيد الرقاشي":

"خذوا الكلمة الطيبة ممن قالها، وإن لم يوفق للعمل بها، فإن الله تعالى وصف عباده المحسنين بأنهم: يستمعون القول فيتبعون أحسنه" ..

فكلمات العلم الطيبة الهادية، خليفة بالحرص عليها واهتبال فرصها المواتية دونما نظر إلى مصدرها.

فـ "الحكمة ضالة المؤمن، أُنِيَ وجدها أخذها".

والإنسان الذي يعرف أكثر من الآخرين، ويملك قدرة على إبلاغ الخير للناس ودعوتهم إليه، واجب عليه أن ينهض بهذا العمل حتى وإن

قعد به ضعفه عن فعل ما يدعو إليه، وفلسفة "أهل الله" في ذلك أن الحقيقة والفضيلة أكبر من أن يحجبهما عن الناس ضعف الداعي، كما أن انتظار الإنسان الكامل الذي لا أخطاء له، لكى يقدم للناس الحق والخير - انتظار سوف يطول مضيقاً على الناس الكثير من فرص الانتفاع بالحق وبالحير.

هذا إمام من أئمتهم الكبار "عمر بن عبد العزيز" يقول:
 "لو أن كل امرئ لا يأمر بالمعروف ولا
 ينهى عن المنكر حتى يلزم بذلك نفسه،
 لما كان هناك أمر بالمعروف ولا نهى عن
 المنكر، ولقل الواعظون والساعون لله
 بالنصيحة .."

وهذا "سعيد بن جبير" يقرر نفس المبدأ فيقول:
 "لو كان المرء لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، حتى لا يكون
 فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر"
 ويعقب "الإمام مالك" على كلمات "سعيد" فيقول:
 "ضدق سعيد، فأين هذا الذى ليس فيه
 شيء؟"

* * *

وإذا كان العلم عندهم ضرورة لكى يتابعوا سيرهم إلى الله على
 بصيرة وهدى.. فهذا العلم وهذا الفقه لابد أن يرتكزا على كتاب الله
 وسنة رسوله..

إن حياة التصوف وطريق التبتل مليئان بالمفاجآت والإغراءات، وما لم يكن مع السالك نور قوى لا يخبو.. وما لم يكن معه دليل لا يضل، فإن رحلته قد تنتهى إلى غاية هي أبعد ما تكون عن الهدف الذى شمر له ونهض إليه.

والنور والدليل هما - كتاب الله وسنة رسوله.

فكل علم وكل فقه، يحدثهم بعيدا عن الكتاب والسنة، لا يمكن أن يكون العلم أو الفقه الذى يوصلهم إلى الله.

يقول "إبراهيم التيمى" مبتهلا إلى الله سبحانه:

"اللهم اعصمنى بكتابك، ويسنة نبيك من
اختلاف فى الحق، ومن اتباع للهوى،
ومن سبل الضلالة، ومن شبهات الأمور،
ومن الزيف واللبس والخصومة".

من كل هذه الآفات التى تعترض طريق السائر إلى الله، والتى

رددها فى دعائه - لا عاصم سوى كتاب الله وسنة نبيه..

من أجل هذا، كان فقد العالم العامل بالكتاب وبالسنة خسارة لا
تطاق.

يقول "أيوب السختياني":

"إنه ليبلغنى موت الرجل من أهل السنة
فكأنما أفقد بعض أعضائى".

ويوصى "أبو العالية" صحبه فيقول:

"تعلموا القرآن، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالإسلام، فإنه الصراط المستقيم، ولا تحرفوا الصراط يمينا ولا شمالاً، وعليكم بسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم .."

ويصيح "مالك بن دينار" قائلا:

"يا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ إن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض .."

فالقرآن هو الذي يهدي قلب المؤمن، وهو الذي يرعرع روحه، وهو الذي يملأ حياته الفاضلة بالخصوبة، ويفعمها بالنور، وهو الذي يؤلق أشواق السائرين إلى الله، ويجعلها دائمة التحليق نحو الملاء الأعلى.

يقول "مالك بن دينار":

"إن الصديقين إذا قرئ عليهم القرآن طارت قلوبهم شوقاً إلى الآخرة"

ويقول "قتادة بن دعامة":

"القرآن بستان العارفين"

* * *

ومن أذكى لفتاتهم في علاقتهم بالعلم والمعرفة، وصيتهم ألا يكتفى المريد بعالم واحد يأخذ منه ويتلقى عنه، فالخير للإنسان أن يستكثر من معلميه ماداموا من ذلك الطراز الذي يسير على نور من ربه.

يقول "أيوب السخيتاني":

"إنك لا تبصر خطأ معلمك حتى تجالس غيره.. فجالس العلماء وجالس الناس.."

والعلم عند "أهل الله" ليس مسألة تحصيل، بل محاولة لرؤية الحقيقة من داخلها..

وكل تحصيل للعلم ومناقشة للمعرفة إنما يتوصل بهما للعلم الحقيقي الذي يشاهدون به الله في آثار رحمته وجلال قدرته.

يقول "أبو القاسم القشيري" رضى الله عنه:

"هناك علم اليقين.. وعين اليقين.. وحق اليقين.."

"فعلم اليقين لأرباب العقول.. وعين اليقين لأصحاب العلوم.. وحق اليقين لأصحاب المعارف...."

ومن أصحاب المعارف؟. إنهم "أهل الله" الذين أضيئت عقولهم وقلوبهم بنور من الله.

* * *

وللعلم عندهم ذروة لا يقنعون دون بلوغها - تلك هي "الفهم عن الله".

أجل إن العلم نورهم على الطريق، ودليلهم إلى الله، وعصمتهم من الانحراف والزلل.. ولكنه فوق ذلك، القوة التي تشحذ فيهم البصيرة،

التي يطالعون بها قلب الأشياء.

إنهم بالمجاهدة الصادقة وبالتعلم الحق، يمتلكون هذه الحاسة النادرة واللباهرة التي تمكنهم من رؤية الحكمة المستسرة في الأعماق للبعيدة المغلقة لجحار المعرفة ومفاوز السلوك.

وإنهم ليتعبدون ويتعلمون، ثم يتعبدون ويتعلمون حتى تجيء الساعة المباركة التي يجنون فيها أولى بركات جهادهم فيمتلكون البصيرة التي تجعلهم يرون ما لا يرى الناس، ويعرفون ما لا يعرف الناس.

يقول "الربيع بن أبي راشد" في ابتهاله إلى ربه:

"اللهم اجعلني ممن يعقل عنك"

كم هي عميقة وبالغة الدلالة، هذه العبارة المبتهلة.. فإن يبلغ المرء الدرجة التي "يعقل" فيها عن الله إنه إذن لذو حظ عظيم.

ولقد سئل "عطاء بن أبي رباح":

"ما أفضل ما أعطى العباد؟"

"فقال: الفهم عن الله عز وجل"

فإن يعقل الإنسان المؤمن عن الله ويفهم، يعنى أنه صار قادراً على أن يتعامل لا مع الأشياء، بل مع جوهرها وقلبها.. ويعنى أنه قد صار "عبداً ربانياً" يرى بنور الله ويضرب بيده!!

و "أهل الله": لأنهم بلغوا هذه المنزلة رأيناهم يتحررون من عبادة الأشكال وعبادة النصوص.

وعلينا - إذن - حين نرى أحدهم لا يعبأ بالشكل، ولا يقف عند

ظاهر النص ألا نرد تفسير ذلك إلى جنوح وتطرف.. بل إلى تلك النعمة الكبرى التي معهم - "نعمة" البصيرة والفهم عن الله.

على أنهم في مقامهم هذا وبموقعهم هذا لا يتمردون أبداً على العلم بمصادره المعروفة ولا ينفصل سلوكهم قيد شعرة عن الخط الذي رسمه القرآن ورسمته السنة.. إنما يمارسون التعاليم من خلال تجربتهم التي أثراها عطاء الله، وزاد من إدراكها نوره.

ولهذا، فإن "بصيرتهم" هذه تعمل بحرية ملتزمة، ولكن إلى أبعاد لا تكاد ترى لها حدوداً.

وهذا يفسر - فيما يفسر - سبب التفاوت الذي نلاحظه في أذواقهم وأعمالهم.

فبينما يؤثر بعضهم التقشف والشطف، يؤثر البعض الآخر التمتع المباح بطيبات الحياة.

وبفضل بعضهم مثلاً إخفاء العبادة - ويؤثر بعضهم إعلانها.

يقول "بكر بن عبد الله المزني" :

"لأن أعافى فأشكر خير من أن أبتلى
فأصبر"

ولكن إلى جواره، نجد آخرون يفضلون البلاء ليطهرهم ويصهرهم.. ثم آخريين، لا يفضلون هذا، ولا ذاك.. لأنهم لا يختارون لأنفسهم.. وإنما يختارون ويؤثرون ما يختاره لهم الله رب العالمين.

وهذا حوار جرى بين اثنين من "أهل الله" هما "هرم بن حيان" و

"عبد الله بن عامر".

كانا يؤمان الحجاز معا.. وخلال السفر وقد بلغا من الطريق أرضا مشجرة، أخذت راحلتاهما تخالجان أوراق الشجر، فقال هرم لابن عامر:

- أتحب أنك شجرة كهذه، وتنجو من الحساب والعقاب؟.

قال ابن عامر: لا والله، فإننى لأرجو من رحمة الله ما هو أوسع من ذلك..

قال هرم: أما أنا، فقد وددت لو أنى شجرة من هذا الشجر، تأكلنى هذه الراحلة، ثم تقذفنى بغرا، ولا أكابد الحساب يوم القيامة. ويحك يا ابن عامر.. إنى أخاف الداهية الكبرى!! فهذان رجلان من الأبرار يختلف اتجاههما النفسى. فينزع أحدهما إلى الرجاء فى رحمة الله نزوعا لا ينسيه أبدا مشاعر التوقير لحساب الله.. وينزع الآخر إلى الخوف الشديد من الله، ودون أن ينسى أيضا أن الله كتب على نفسه الرحمة.

ولكنهما معا فى هذا التباين لم يذهبا بعيدا عن كتاب الله ولا عن سنة رسوله ولا عن العلم الحق الذى منه ينهلون. فمنهجهم مختلف، ولكنه فى الحقيقة متفق.. ومتعدد، ولكنه فى الحقيقة واحد.

يقول "داود بن أبى هند القارى":

"إذا أخذت بالذى أجمعوا عليه، لم يضرك الذى اختلفوا فيه"!!..

وهى قاعدة ذهبية لا تهدى بنورها السائر فقط فى دروب "أهل الله"

والماخر عباب عالمهم.. بل هي كذلك "وصفة" بارعة في مجال الفقه، وعالم الفقهاء.. هذا العالم الممتلىء بوجهات نظر لا تؤذن بانتهاء!!
ولأنهم أوتوا نعمة "الفهم" عن الله عز وجل، فقد تفوقوا على كل المتاهات الكلامية التي لم يخرج الجدل منها بطائل عبر مئات السنين.
فمسألة "القدر" مثلاً، ماذا خرج به العقل الإنساني خلال معارك الجدل والكلام التي استمرت قروناً، ولا تزال؟.. لا شيء أبداً.
أما أولئك الذين يطالعون قلب الأشياء، فقد فهموا روح النصوص التي تناولت القدر في القرآن وفي السنة.. فهموا روح النص، وسمعوا نبضه الوثيق، وعبروا عن القضية كلها بكلمات تناهت في اليسر، لكن ليس يفوقها ولا يغني غناها أي من تلك الفلسفات التي لا يؤذن حديشها بانتهاء.

يقول "المنذر بن مالك" :

"ينتهي القدر إلى هذه الآية
﴿إِنْ رَبُّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾".

أجل.. في قلب هذه الآية الكريمة كل قضية القدر، لمن ينظر إليها كوجه من وجوه الإيمان.. لا كمشكلة من مشاكل الفلسفة وموضوع لاستعراض قدرة الذكاء الإنساني على الجدل والحوار.
فإن يكون الإنسان "مسيراً" أو "مخيراً" أو "هما معاً" فإن ذلك كله لن ينفي حقيقة أن الإنسان شيء من أشياء الله وخلق من خلقه.. وأن الأمر كله، والملك كله لله الواحد القهار، وأن أعظم مخلوقاته سواء كان الإنسان أو غيره يفعل أحياناً ما لا يريد، ويريد أحياناً ما لا

يستطيع أن يفعل.

أما الله، فهو - وحده - الفعال لما يريد!!

أجل، صدق "المنذر بن مالك" وصدق معه أهل الله العارفون، فعند هذه الآية الكريمة ينتهى القدر وعندها يبدأ الفهم الصحيح لقضيته.

فليبذل أهل الأرض جميعا كل جهودهم لإشقاء إنسان يريد الله إسعاده، فالنتيجة معروفة ولا شك فيها، تؤكدنا الآية الفاصلة ﴿إِنْ رِىْكَ فَعَالٌ لِّمَا يَرِىْدُ﴾!!

وليبذل الطب كل معجزاته لإنقاذ حياة من الموت، قد جاء عند الله أجلها. فالمصير معروف ﴿إِنْ رِىْكَ فَعَالٌ لِّمَا يَرِىْدُ﴾!!.

هذا هو الذى يعنى المؤمنين فهمه من القدر. بل وهذه هى روح قضية القدر أدركها الذين "فهموا" عن الله، والذين أوتوا "البصيرة" التى تنفذ فى مثل لمح البصر إلى "قلب الأشياء" وليس إلى أشكالها الباهتة.

وهذا الفهم عن الله، أفاء على "أهل الله" تلك النعمة التى تخصصوا فيها وعرفوا بها - نعمة الزهد والورع. لقد كان موقفهم من مناعم الحياة، بل ومن ضروراتها مثار العجب والحديث الطويل من الذين عنوا بدراسة تاريخهم. ولقد بهروا الدنيا بطريقة استغنائهم عنها وزهدهم فيها.

لقد كانوا يرفعون أبصارهم نحو أمسهم القريب فيرون طائفة كبيرة

من أصحاب الرسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم قد أجادوا
فن الزهد في الدنيا والترفع عن إغرائها، فصمموا على أن يتبعوهم على
نفس الطريق.
يقول "الحسن البصري"

"والله، لقد أدركت سبعين بدرية - ممن
شهدوا غزوة بدر - أكثر لباسهم الصوف.
لو رأيتموهم لقلت: مجانين، ولو رأيكم
خيارهم: لقالوا: ما لهؤلاء من خلاق، ولو
رأوا شراركم، لقالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم
الحساب.
ولقد رأيت أقواما كانت الدنيا أهون
على أحدهم من التراب تحت قدميه.
يمسى أحدهم، وما يملك إلا قوتا -
كفافاً، فيقول: لا أجعل كل هذا في -
بطني، والله لأجعلن بعضه لله، ويتصدق
ببعضه.. وهو إليه محتاج!"

و "أصحاب رسول الله" و "أهل الله" من بعدهم معذورون في
فزعهم الشديد من الدنيا.. فطالما أنصتوا للقرآن الكريم يحذر منها
وينعتها بدار الغرور.. ثم إن سيرة نبيهم عليه الصلاة والسلام أمامهم
تريهم كيف كان يقضي الشهرين والثلاثة لا توقد في بيته نار تطهو طعاما
وكيف كان ينام على حشية من لوف.. وكيف كان بعد أن فتحت عليهم

الدنيا وكثرت مغانمها يحرم نفسه وأحب الناس إليه "فاطمة" بنته وأهل بيته الأقربين من كل نعيم مكتفيا منها - له ولأهل بيته - بالشطف والكفاف!!

ولقد كان في أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك من لم يحرم نفسه من طيبات الحياة ما دام يؤدي حق الله فيها، وما دامت لا تلهيهم عن ذكره وعبادته.

ولقد ورث "أهل الله" كلا الاتجاهين، وأضفى كل فريق على اتجاهه روح فلسفته وتفكيره.

بيد أنهم جميعا متفقون على ضرورة الحذر منها، وعدم الثقة بها، فوظيفتها الحقيقية عندهم - أنها المكان والزمان اللذان منحهما العبد الصالح، ليهيئ من خلالهما لنفسه غدا أبديا خالدا وصالحا عند الله رب العالمين.

أما ما وراء ذلك، فهي أكذوبة كبرى.. أو هي على أحسن الفروض والأوصاف:

"يقين لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه!"

وهم يحاذرونها، لأنها في حقيقتها غرور.
يقول "أبو حازم"

"ما مضى من الدنيا حلم، وما بقى منها أمانى"

ويمقتونها لأنها فتنة كل تافه، وبهيمى، وجشع.

أخذ "مسروق بن عبد الرحمن" ابن أخ له وصعد به كومة عالية
 كان الناس يتخذون منها ملقى لكناستهم وزياتهم ولما ارتقاها قال له:
 "ها هي ذى دنياهم تحت أقدامنا
 أكلوها فأفنوها، ولبسوها فأبلوها،
 وركبوها فأنضوها، وسفكوا من أجلها
 دماءهم، واستحلوا فيها محارمهم،
 وقطعوا فيها أرحامهم!!"

أجل.. إن المنافسة حولها قاتلة وغير شريفة.. والإنسان في زحامها
 المجنون يدوس أخاه ويسحق رفيقه كي يصل قبله ويأخذ أكثر منه..
 يقول: "أبو حازم" متهمكما وساخرا:

"لا تكاد تمد يدك لشيء منها - أي
 الدنيا - إلا وجدت آخرين قد سبقوك
 إليه"!!

ويصف "شميط بن عجلان" عشاقها فيقول:

"حيارى، سكارى، عشقوها ولميفطموا
 أنفسهم عن رضاعها.

إذا أحدث الله لأحدهم نعمة تمطى رياء
 وسمعة، ونادى فى الناس: أن تعالوا
 وانظروا...

دائم البطنة قليل الفطنة يقول: متى أصبح
 فأكل وأشرب وألهو وألعب، ومتى أمسى
 فأنام .. جيفة بالليل .. بطل بالنهار"!!

ولقد تفرغ "أهل الله" لعبادة الله سبحانه.. فكيف يشغلون ظهورهم ولو بالمناعم والطيبات.. وأنى يكون لهم فى غير مرضاة الله شغل؟
 وقع حريق كبير بالبصرة ذات يوم، وعصف الهلع بالناس.. أما "مالك بن دينار" فقد أخذ بطرف رداءه ومشى فى شوارعها لا يلوى على شىء وهو يقول:

"هلك أصحاب الأثقال"

وهو رمز جميل وصادق للذين يستكثرون من الدنيا بغير قناعة أو تعقل، وينسون أن لكل كثير شواغله وهمومه وثمرته الفادح وأحياناً المهين.

وعندهم أن من دلائل العصمة التى يهبها الله عباده الصديقين، أن تضمن عليهم الدنيا بحاجاتها.. أو بتعبير أصدق وأصح، يضمنون هم على الدنيا برغباتهم فيها ومنها.
 يقول "إبراهيم النخعي":

"إن من العصمة أن تطلب الشىء من الدنيا فلا تجده"

هذا، لمن يطلبون.. أما "أهل الله" فلطالما شهدت ساحات الدنيا صراع الجبابرة يجرى بينهم وبينها.. هى تريدهم، وتطاردهم بكل ما فيها من بهر وإغراء.. وهم يذودونها عن ورعهم ودينهم وتقواهم ومصيرهم المذخور لهم عند الله بكل ما فى عزماتهم الشاهقة من بأس وعنفوان.
 وإنهم ليرددون كلمات أخ لهم كبير، هو "أويس القرنى" فى غبطة وحبور:

"إن بين أيدينا عقبة كئودا، لا يجاوزها
إلا كل ضامر ومُخَفٌّ، فأخفُّ يرحمك
الله!"

إن "أهل الله" لا يكون على دنيا.. ويرون في ترك الحرص عليها
والعدو وراءها تصرفا بدهيا، ومنطقيا مع أبجديات الإيمان.
يقول "أبو حازم":

"وجدت الدنيا شيئين.. شيئا لى وشيئا
لغيرى
فأما الذى لغيرى، فلو طلبته بكل حيل
الأرض ما وصلت إليه
وكذلك الذى لى، لن يستطيع أحد أن
يناله منى"

هى إذن عندهم لا يجدى معها الحرص حتى لو أرادها الحريص،
لأن الأرزاق فيها متدرة، ولا سبيل لك إلى ما قسم لغيرك.. وكذلك لا
سبيل لغيرك إلى ما قسم لك.
من أجل هذا كان المشغولون بها فى عذاب.. من وجدها، ومن
فقدها.

يقول "شميط بن عجلان":

"أثنان معذبان فى الدنيا..
رجل أعطى الدنيا، فهو مشغول بها، وفقير
زويت عنه، فنفسه تتقطع عليها حسرات.."

وبعود "أبو حازم" فيقول:

"نعمة الله فيما زوى عنى من الدنيا، لا
تقل عن نعمته على فيما أعطاني منها، إنى
رأيت أعطاهما قوما، فهلكوا"

ورأى "أبى حازم" هذا يكاد يمثل ملتقى الاتجاهات جميعا حول
موقف "أهل الله" من الدنيا.. فكل ما ينالهم من خلالها نعمة، وكل ما لم
ينالوا نعمة لا تقل فى استحقاقها الشكر عن النعمة الأولى، ثم هم إذا
خيروا بين الإكثار منها والإقلال فيها، اختاروا الإقلال، لأنهم لم
يجدوا له صرعى.. بينما صرعى الإكثار كثيرون!! وإنهم ليلفتون أنظار
الناس إلى إحدى حقائق الدنيا، ليقل تهالكهم عليها.
يقول "أبو حازم" :

"ما فى الدنيا شىء يسرك، إلا وألصق به
شىء يسوءك"

ألا إن كل إنسان قادر على أن يحصى مئات الشواهد من حياته
ومن حياة الناس على صدق هذه الحكمة.
وإذن فطلب المزيد من الدنيا حماقة، لأنها فى نفس الوقت تمثل
مزيذا من المتاعب والسوء.

من أجل هذا يرى "أهل الله" فى الذين أتوا نعمة القناعة والزهد
الملوك الحقيقيين فى الدنيا.
يقول "مالك بن دينار" :

"كن ملكا فى الدنيا والآخرة ...
ازهد فى الدنيا، تكن كذلك"

ويقول "محمد بن كعب القرظي" :

"أشقى الناس بها أرغبتهم فيها،
وأسعدهم بها أزهدهم فيها..
هي المعذبة لمن أطاعها، المهلكة لمن
اتبعها، الغادرة بمن انقاد لها..
زيادتها نقصان.. وأيامها دول" !

* * *

ولماذا يحرص "أهل الله" على الدنيا؟..

أمن أجل أن يكونوا أثرياء؟..

ها هم أولاء يتحدثون على لسان أحدهم "مسروق بن عبد
الرحمن" :

"إنى لأسعد ما أكون حالا حين يقول
الخادم : ليس في البيت قفيز ولا درهم" ..

أم لكي يتركوا ثروة لأبنائهم وذرياتهم؟..

ها هو ذا "إبراهيم النخعي" يجيبه أكثر من عشرين ألف درهم،
فيتصدق بها جميعا .. فيقال له: لو ادخرت منها لولدك فيقول:

"لقد ادخرتها لنفسى وادخرت الله
لولدى" !!

ولقد استجاب الله لحسن ظنه به وبقينه .. فلم يكن في الناس يومئذ

أكثر ثراء ومعادة من أولاده..

أم يريدونها ليتقوا بها الحاجة ويستعينوا بها على طاعة الله؟.

أجل.. هنا لا غير يذكرون حاجتهم إلى الدنيا.. أو على الأصح
علاقتهم بالدنيا.. فهم لا يريدون منها سوى لقيمات تقمن الصلب..
وثوب يستر الجسد.. وهو قدر لا يجعل للدنيا أى ذكر فى تفكيرهم، ولا
فى أحلامهم.

ثم إن نعم الدنيا لا تتمثل فقط فى المال ولا فى أطايب الطعام
والشراب واللباس..

إن نعم الله على الناس لأجل من أن تحصي وتحمد.. وإذا كان
حمقنا وطمعنا وجهلنا يستر عنا تلك النعم، فلم نعد نراها إلا فى مائدة
عامرة، أو ثياب فاخرة.. أو جيوب منتفخة بالأموال، فإن "أهل الله" يرون
هذه النعم تملأ وجودنا وحياتنا، وتنادى العين التى ترى.. والأذن التى
تسمع.. والقلب الذى يفقه..
هذا "يونس بن عبيد" يقصده رجل شاكى فقره وحاله، فيسأله
"يونس":

- "أيسرك أن يذهب بصرك وتعطى مائة ألف"؟

يقول الرجل: لا..

- "أيسرك أن يذهب سمعك، وتعطى مائة ألف"؟

يقول الرجل: لا..

- "أيسرك أن تذهب يداك ورجلاك وتعطى مائة ألف"؟

- "أيسرك أن يذهب عقلك ولسانك وتعطى مائة ألف"؟

يقول الرجل: لا...

وهنا ضحك "يونس" وقال للرجل:

- "أنظر - إذن - كم معك من مئات الألوف وأنت تشكو الحاجة!!"

بعض الناس يرون فى مثل هذه الكلمات مجرد عزاء.. وإنهم لمساكين واهمون.. فهذا الذى قاله "يونس بن عبيد" هو عين الحقيقة ولباب اليقين..

فالعافية نعمة.. بل هى ثروة.. بل هى رصيد فعلى ومادى كهذا الذى يودعه الأثرياء فى المصارف والبنوك أو أكثر.. فلماذا لا نرى هذه النعمة أبدا.. ولا نشكر الله عليها نحن الغافلين الجاحدين؟..

هل نعم الحياة هى المال فقط؟.. والمنصب فقط.. والجاه فقط؟.. إذن فنحن لانراها إلا من خلال جهالتنا وصغارنا!!..

أجل.. لا نراها إلا مالا ومنصبا، وجاها، لأن هذه الثلاثة هى التى تتيح لغرورنا ولهوان نفوسنا وغاياتنا أن تتبختر وتختال، طامعة أن تخرق الأرض أو تبلغ الجبال طولا!!..

لذلك نرى "أهل الله" بموقفهم من الدنيا ومن المال، وبإدراكهم المضىء الباهر لهذه القضية كلها يرتفعون فوق كل مستويات الذكاء الإنسانى ويعانقون الحقيقة فى قلب النهار.

* * *

إنهم يريدون للناس أن يكونوا أحياء الدنيا لا ضحاياها.. وسادة المال لا عبده..

والسبيل لذلك - أن يأخذوا المال من حله.. وينفقوه فى حله.. وأن يقنع كل بما يكفيه، ولا يطمح إلى ما يطغيه.. يقول "ميمون بن مهران" :

"لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد مما يحاسب شريكه.. وحتى

يعلم من أين مطعمه، وملبسه، ومشربه -
من حلال ذلك أم من حرام ..

ولكى يعيش الإنسان على الحلال مطمئنا، لابد أن يبتعد لا عن
الحرام.. بل عن تخوم الحلال المجاورة للحرام..
يقول "ميمون بن مهران" أيضا:

"لا يسلم الحلال لأحد، حتى يجعل بينه
وبين الحرام حاجزا من الحلال" ..

كلمات تتفجر ذكاء ونورا.. وتضعنا أمام "الورع" وجها لوجه.
فكثيرا ما نحسب أن الورع ترف في الفضائل.. لا، إن "أهل الله"
يعلموننا أنه "ضرورة" لا ترف، فأنت لا تتوقى النار بحاجز النار نفسها..
بل بحاجز من الأرض بعيد عنها.. وكذلك المال الحرام لا يتوقى إلا
بجزء كبير من الحلال يحول بينك وبين مواجهة الحرام، وهذا هو
"الورع" ..

والورع عندهم أمر واضح ويسير..
يقول "يونس بن عبيد" :

"لا شيء أيسر على من الورع
إذا رابى بشيء تركته

إنه يشير بهذا إلى ما علمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:
"دع ما يريبك، إلى ما لا يريبك"

فعندما نسمع أن أحد أولئك الأبرار رفض مثلا أن يسد جوعه
بواحدة من البُسُر أسقطتها الريح على الأرض، لأن صاحب النخلة لم
يأذن له، فلا نسمى هذا بجهلنا ما تعودنا أن نسميه.. بل نصفه بنعته

الحقيقي، وهو الورع.

إن "أهل الله" يقيسون الأمور بالتحليل النهائي لها، ولنطالع هذا

النبأ:

يقول "مالك بن دينار" :

"خرج جابر بن زيد - وهو من إخوان

مالك في الله - يوما فمسر بحديقة،

فاحتوشته كلابها، فأخذ قصبة من حائط

وجعل يطرد بها الكلاب، ولما وصل داره

قال لأهله: احتفظوا بهذه القصبة حتى

أردها غدا إلى مكانها.

فقالوا: سبحان الله يا أبا الشعثاء، ما

يبلغ الأمر بقصبة؟..

فقال: لو أن كل من مر بهذا الحائط أخذ

منه قصبة ما بقى منه شيء!!

وهكذا، لم يكن ورعهم سذاجة، بل كان حكمة وعمق تفكير.. كان

"أبو حازم سلمة بن دينار" يقول:

"قد رضيت من أحدكم أن يحافظ على

دينه، كما يحافظ على نعليه!!".

فنحن في الطريق نتوقى الوحل ونتحاماه حتى لا يصيب نعالنا.

وإذا أصابها لم نصبر على تلوثها، بل نسارع إلى تنظيفها وتلميعها.. ألا

ما أوجع كلمة "أبي حازم"؟ إن لها لمثلا وخز السهام!!.

إن اتقاءهم الحلال إذن لم يكن تطرفاً. بل كان ضرورة حتى لا يواقعوا الحرام.. لا سيما حين يفشو الكسب الحرام ويملاً الجيوب والبطون.

يقول "شقيق بن سلمة" :

"إن أهل بيت يضعون على مائدتهم
رغيفا حلالاً، لأهل بيت غرباء"!!..

والورع عندهم ليس فضيلة فحسب.. بل واجبا مفروضاً لأن معناه لا سيما عند - فساد الذمم - ترك الكسب الحرام، فهل ترك الكسب الحرام نافلة؟.

إنه واجب ولزام.. ولو أن كل إنسان يأخذ حقه لا غير، ويترك للآخرين حقوقهم، لتناه الفقر في زحام الكفاية والغنى.
يقول "ميمون بن مهران" :

"لو تعاهد كل إنسان كسبه، فلم يأخذ
إلا طيباً.. ثم أدى حق الله فيه ما احتجج
إلى الأغنياء، ولا احتاج الفقراء"!!.

ففلسفتهم الحكمة والعميقة عن المال والثروة تضع كلتا عينيها على "إنسانية الإنسان" - هذه التي لا يستعبد لها شيء كما يستعبد لها المال - رغبة فيه.. وتهالكاً دونه، وحرصاً عليه.

وإنسانية الإنسان تنتصر في معركتها مع المال في نظر "أهل الله"
إذا سعى الإنسان إليه برفق وأمانة وشرف، وأدى حق الله فيه لذوى
القربى والفقراء والمساكين، وأسهم به في إرباء المنفعة الاجتماعية

وإسعاد الناس.. وبعد ذلك فلينعّم ذو المال بماله في غير سرف ولا مخيلة.

قيل لـ "مالك بن دينار" إنك تغلظ على الناس في طعامهم ولباسهم فقال:

"اكتسبوا حلالا.. ثم البسوا ما شئتم"

ويقول "يونس بن عبيد" :

"إنما هما درهمان:

• درهمٌ أمسكت عنه حتى طاب
فأخذته.

• ودرهمٌ وجب فيه حق الله، فأديته"

إن حرصهم لشديد على أن يجيء المال من حلال، فلا انتهاب ولا اختلاس، ولا سرقة، ولا غش، ولا احتيال.. ثم يُنفق في حلال بادئا بحقوق الله فيه التي لن ينال الله منها شيئا، إنما يذهب نفعها للمحتاجين ويبقى ثوابها للمنفقين.

ثم لا تكون - أي الأموال - أداة للسرف والترف، لأن الله لا يحب المرففين ولا المترفين.. كما لا يكون محرضا على الشح، لأن الله يمقت البخلاء الأشحاء..

يقول "ميمون بن مهران" :

"في المال ثلاثة حقوق، إن نجا صاحبه
من واحد، خيف عليه من اثنين، وإن نجا
من اثنين، خيف عليه من الثالث..

أن يكون طيباً. فأياكم الذى يسلم كسبه
من حرام أو شبهة؟

وأن يؤدى حق الله فيه..

وأن ينفق فى قصد، فلا سرف ولا
تقتير"!!..

ولكى تبقى "إنسانية الإنسان" لا بد أن يكون سعينا للمال - كما
قلنا - سعياً رقيقاً، وأن تكون وسائلنا كريمة شريفة.
وذلك لا يتيسر إلا لمن راض نفسه على القناعة، وزانها بالورع
وأدرك - كما سمعنا - لأهل الله من قبل أن كل كثرة فى المال وزيادة فى
الدنيا، إنما تحمل معها كثرة فى الهموم، وزيادة فى المخاطر.
هذا فى دنيا الناس الفانية.. أما يوم القيامة فالحساب شديد
والعقبة كنود.

من أجل هذا يرفض "أهل الله" أن يكونوا ضحايا الكثير.
يقول "يزيد التيمى" :

"قدمت البصرة، فربحت فيها عشرين ألفاً
فما اكرثت بها.. وما أريد أن أعود
إليها بعد أن سمعت أبا ذر يقول: إن
صاحب الدرهم يوم القيامة، أخف
حساباً من صاحب الدرهمين"!!..

هذا مثال اخترناه من بين عشرات الأمثلة والمواقف؛ لأن صاحبه
لم يكن فقيراً، فهو يتعزى عن فقره.. بل هو تاجر ناجح، كسب فى رحلة

واحدة عشرين ألفاً، فما اُكثرت لها، ولا بطر بها.
 بل لقد أثارت في نفسه الحنين إلى الربح القليل المتواضع..
 لأن صاحب الدرهم، أخف حساباً يوم القيامة من صاحب
 الدرهمين.. وصاحب الدرهمين، أخف حساباً من صاحب الثلاثة..
 من أجل هذا، كان أشد ما يأخذون على الناس تهالكهم على
 المال. يقول "شميط بن عجلان".
 "قد أعطيت ما يكفيك وأنت تطلب ما
 يطغيك!"

و "أهل الله" لا يكثرثون بالمال، لأنهم لا يخشون الفاقة..
 أولاً: لأن إيمانهم بالله الخالق الرزاق يملأ أفئدتهم باليقين..
 ثانياً: لأن حاجاتهم في الحياة يغطيها أقل شيء
 سئل "حسان بن أبي سنان"
 "أما تحدثك نفسك بخوف الفاقة؟..
 فقال: نعم ..

قيل: فبأي شيء تردّها؟
 قال: أقول لها: لو أصابتك الفاقة غداً،
 فستأخذين المسحاة، وتعملين مع الفعلة،
 فتكسبين دانقاً أو دانقين تعيشين بهما..
 ثم تعملين وتعيشين.. وتعملين وتعيشين..
 فتسكن وتهداً".

هذا "معلم" يعلمنا ألا نفتح على أنفسنا أبواب الحياة فلا نجد
 بعد ذلك مهما يزد ثراؤنا، ما يُشبع طمعنا وطموحنا.. يعلمنا ألا نستسلم

لهلع النفس الجائعة المسعورة التى تحملق دائما لا فى الكفاية بل فى
المزيد، تلو المزيد..

و "أهل الله" بهذا لا يكرهون للناس الشراء المشروع ولا الرفاهية
الشاكرة.

يقول "عمرو القارئ" :

"كانوا يعدون الغنى والسعة عوناً على
الدين"

ويقول "إبراهيم النخعي" :

"من حسن الله صورته، ووسع رزقه، وبوأه
منصباً صالحاً.. ثم أدى حق الله فى كل
هذا وتواضع، كان من خاصة أهل الله"

أرأيتم ؟...

هنا هيئة جميلة، ورزق واسع، ومنصب مبولاً.. ومع ذلك فإن
صاحب هذا كله ليس مقبولا فحسب، بل ومن خاصة أهل الله.. لأنه
عرف كيف يشكر ربه ويتواضع لعباده..
وهكذا يقول "أبو قلابة" :

"لن تضرك دنيا، أديت شكرها لله عز وجل"

بل لننظر هذه الواقعة المعبرة:

رأى أبو قلابة أحد أصحابه يشتري تمرا رديئا، فقال له:

- "لقد كنت أظن أن الله تفعلك

بمجالسنا.. أما علمت أن الله نزع من كل
ردىء بركته؟!!

أهناك أذكى وأبهى من هذه الكلمات فى هذا المقام، يقولها رجل
متصوف زاهد؟!!

ها هم أولاء فى زهدهم وورعهم، يرفضون الردىء، لأن المؤمن
طيب وهو أحق الناس بالطيبات!.

المشكلة - إذن - هى فى علاقتنا بالمال وبالدنيا..
وبتلون هذه العلاقات وخضوعها لتيارات كثيرة متناقضة تتغير نظرة
"أهل الله" إلى الموضوع وتتعدد آراؤهم وتوجيهاتهم.
وإننا لنراهم فى نظرتهم الواقعية للمال يذهبون فى حسن الانتفاع به
مذهبا بعيدا.

فهذا "محمد بن كعب القرظى" يقول:
"التدبير نصف المعيشة والتودد نصف
العقل"

إذن فهم يباركون حتى الادخار والقصد..
إن مع "أهل الله" من الفطنة ما يعرفون به ويدركون حاجة الناس
لوسائل العيش والحياة.
فيقول "نافع بن جبير" :

"إنك من أهل الدنيا ما دمت فيها.. ولا
غنى لأهل الدنيا عما يصلحهم..
بل لنطالع هذين النصين لقطب من أقطابهم هو "سعيد بن المسيب"

رضى الله عنهم أجمعين.

يقول أولا :

"إن الدنيا نذلة، وهى إلى كل نذل أميل..
وأنذل منها من أخذها بغير حقها، وطلبها
لغير وجهها، ووضعها فى غير سبيلها" !!.

ثم يقول مرة أخرى:

"لا خير فيمن لا يحب هذا المال ليصل به
رحمه، ويؤدى أمانته.. ويستغنى به عن
الناس"

كما كان يشير إلى أمواله ويقول:

"أصون بها دينى وحسبى"

فالدنيا النذلة - كما وصفها سعيد - والتى هى إلى كل نذل أميل..
إنما تكون كذلك وفق الغرض الذى نتوخاه منها والحافز الذى يدفعنا
ويسوقنا إليها، ووفق الوسيلة التى نتوسل بها.

وهكذا نراها فى صورتها الأخرى ليست نذلة ولا إلى كل نذل
أميل بل هى فرصة المؤمن الصالحة الطيبة إلى يوم معاده وحسن مآبه،
فما الذى غير الصورة؟. إنه نوع العلاقة التى تربط الإنسان بدنياه..

وهكذا لم يعد المال وسيلة تستخدمها فى تأفف وضجر.. بل هو
عون صالح يُحَب، شريطة أن يكون فى مصادره، وفى مصارفه، وفى
مسيرته كلها كما قال "أهل الله" مما فصلناه خلال الصفحات السالفة -
من حلال طيب يجىء .. وفى حلال طيب ينفق.. لا نتهالك على جمعه..
ولا نبخل به أو نسرف فيه.. ثم نترك لغيرنا حقه فيه، فلا نأخذ منه فوق

كفايتنا..

على أن "أهل الله" حين يكون الأمر متعلقا بهم، والمصير مصيرهم، فإنهم لا يريدون من الدنيا إلا مثل حسو الطائر.
 إن الدنيا - ذلك المسرح العريض لكل رغبات الناس وشهواتهم وطموحهم، واجتماعهم وانقضاضهم.. الدنيا بكل أسواقها الهائجة ومهرجاناتها المائجة، لا تعنيهم ولا ينبغي لهم أن يحسوا لها وجودا.
 وهم يدفعون ثمن ذلك من زهدهم وجهادهم وإخباتهم، والعيش مع شظفها، والتدثر بالحرمان منها.
 يقول "جعفر الصادق" :

"إنما الدنيا للعارفين كفىء الظلال".

الدنيا كلها مهما يطل العمر فيها - كلحظات الظل التي يقضيها المسافر تحت أفنان شجرة ثم يمضى.. فلماذا يشغلون إذن بأموالها ومتاعها وفتنتها وأهوائها؟
 إنها فرصتهم لطاعة الله، ولتقديم الصالحات الباقيات التي سيحيون فيها إلى جوار الله، وفي فردوسه الأعلى خالدين مخلدين.
 أما بعد ذلك، فلا تعرفهم الدنيا ولا يعرفونها.
 يقول "إبراهيم التيمي" :

"تمثلت نفسي في النار، أعالج أغلالها وسعيرها وآكل من زقومها، وأشرب من غسيلنها.. فقلت يا نفسي: أى شيء تشتهين؟ قالت: أرجع إلى الدنيا فأعمل

عملا أنجو به من هذا العذاب..
 ثم تمثلتها في الجنة مع حورها - ألبس
 من سندسها، وإستبرقها، وحريرها، فقلت
 يا نفسي: أي شيء تشتهين؟ قالت: أرجع
 إلى الدنيا، فأعمل عملا أزداد به من هذا
 النعيم..

فقلت لها: ها أنت ذى في الدنيا
 فاعملي!!

إنهم يرفضون أن يكون للدنيا في قلوبهم مكان.. بل وفي إحساسهم
 - مجرد الإحساس..

فسلامتهم من إغرائها لا تتمثل فقط في الزهد فيها والاستغناء
 عنها، بل وفي فقدان الشعور بوجودها.
 يقول: "أبو الأبيض":

"أعلم أنك لن تسلم من الدنيا، حتى
 لا تبالي مَنْ أكلها من أحمر أو أسود".

إنهم ليسوا أتقياء وحسب، بإبقائهم الدنيا بعيدا منهم، بل أذكاء
 أيضا..

فأمامهم آلاف من المشاهد والصور، لناس كانت الدنيا معهم
 بالأمس تضمخهم بعطرها، وتغرقهم بخيرها.. وفجأة تولت عنهم إلى
 غيرهم، وغدا إلى آخرين.. وبعد غد إلى سواهم.
 يقول "محمد الباقر":

"الدنيا مثل مال أصبته في منامك، فلما

استيقظت لم تجد معك منه شيئاً ..

فلماذا ينخدعون لها، ويعيشون متوقعين ضرباتها ومفاجآتها؟
حسبهم منها مالا يُخلف فقدانه الحسرة والعذاب.

وليضحكوا مع "جابر بن زيد" وهو يحكى غبطة روحه قائلاً وكأنه
يشمت فى الدنيا التى لم تستطع اصطياده:

"ما أملك من دنياكم إلا نعلين قديمين
وحماراً" !!

وليضحكوا كذلك فى غبطة مع "الحجاج بن الفرافصة الباهلى"
الذى يقف فى السوق عند أصحاب الفاكهة، فيُسأل ما تصنع؟ فيقول
مشيراً إلى الفاكهة:

"أنظرُ إلى هذه المقطوعة الممنوعة"

مشيراً بذلك إلى فاكهة الجنة التى أعدها الله للمتقين من عباده،
والتي وصفها القرآن الكريم فقال:

﴿لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مُنْعَةٌ﴾

* * *

على أن لأهل الله صارفاً آخر يصرفهم عن الدنيا بقوة ولا يملكون
له دفعا - ذلكم هو الموت..

أجل.. الموت الذى يعرّى الدنيا من كل زيفها، ويضع الإنسان
وجهًا لوجه أمام مصيره فى أبد لا يفنى ولا يزول.. ينتظره فيه نعيم مقيم..
أو عذاب عظيم!!

هنا، لا ينسون من الدنيا متاعها فحسب، ولا وجودها فحسب، بل
ينسون اسمها.. وهنا لا خيار أبداً ولا ينبغى أن يكون ثم خيار، حين

تكون المفاضلة بين ذلك الشيء الصغير الضئيل التافه الذى يسمى الدنيا، وبين الآخرة.

فالموت فى آذانهم وفى روعهم نذير يصيح: أن استعدوا للرحيل.

• إلى أين؟.. إلى دار تحيون فيها خالدين، حيث النعيم الخالد للمتقين.. والعذاب الماحق للمفسدين..

• وما هذه الدار التى نحن فيها إذن؟.. هى الدنيا. ألا يذكركم اسمها بحقيقتها؟ هى دار فانية تقضون فيها أعمارا كأنها لحظات..

• ولماذا جئناها إذن؟ ليلوكم ربكم أيكم أحسن عملا !!

إذن فعلى هذه الدنيا العفاء.. وإذن لن يمنحها "أهل الله" خفقة

واحدة من قلوبهم، ولا بسمه ضاحكة من شفاههم.. وبالتالى فهم لا يريدون من متاعها ولا من زينتها شيئا - أى شيء - ولتهب رياح السحر لتحمل منهم تسبيح المسبحين، وأنين الباكين، وضراعة الضارعين، وأنفاس شوقهم المشتاق إلى لقاء الله ورضوانه.

هكذا رأيناهم يشمون فى كل مظاهر الدنيا رائحة الموت.
هذا "يزيد الرقاشى" يقول:

"إن سرك أن تنظر إلى الدنيا بما فيها من ذهب وزينة، فهلم أخبرك..

شيع جنازة ميت، فهذه هى الدنيا بكل ذهبها وزينتها..

واحمل القبر دوما معك.. لا أقول: احمل تربته.. بل احمل فكرته."

يا لروعة التفكير والتعبير يا شيخنا يزيد!!

ألا، فلنعد تلاوة عبارته الحكيمة مرة أخرى:
 "واحمل القبر دوماً معك.. لا أقول:
 احمل تربته.. بل احمل فكرته..
 إنهم بهذا المعنى عاشوا يحملون قبورهم في كل زمان وكل
 مكان.. عاشوا يحملون "فكرة" القبر و "فكرة" الموت، وكان هذا الذي
 يحملون أعظم حاجز دفع عنهم طوفان الحياة الدنيا، وأحاله تحت
 أقدامهم إلى فقايق!!..

يقول "إبراهيم النخعي":

"ما من أحد ينزل الموت حق منزلته إلا
 عد غداً ليس من أجله..
 كم من مستقبل يوماً، لا يملكه.. وراج
 غداً، لا يبلغه..

ولو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم
 الأمل وغروره!!

وهكذا رأيناهم يعزفون عن كل عمارة تخصهم في الدنيا.. وكلها
 دعوا إلى ذلك قالوا، كما قال "سليمان التيمي":

"الأمر أعجل من هذا.. فالموت غداً!"

وهم ينادون المؤمنين كافة ألا يدعوا الدنيا تنسيهم الآخرة..
 وأولئك الذين يغترفون من طيباتها المباحة المشروعة، أحق من غيرهم
 بهذا النذير، لأن النعم كثيراً ما تنسى!!

يقول "إبراهيم التيمي":

"إن من كانوا قبلكم فروا من الدنيا وهي

مقبلة عليهم، وإن معهم من التقوى يومئذ
ما معهم، وأنتم اليوم تتبعون الدنيا،
وهي مدبرة عنكم وإن معكم من الخطايا
ما معكم" !!

هذا نذير قليل للناس منذ ألف عام.. ترى ماذا يقال لنا اليوم وأين
مكاننا من القافلة المزدحمة بألف من الأعوام؟ !
كذلك يقول "إبراهيم النخعي" :

"إن الصالحين قبلكم، كانوا يجعلون
للدنيا ما فضل عن آخرتهم، وإنكم اليوم
تجعلون لآخرتكم ما فضل عن دنياكم"

* * *

و "أهل الله" إذن بتخطيهم الدنيا إلى الآخرة ليسوا سذجاً ولا
مخدوعين.. إنما هم أذكى الناس قاطبة إذا كانت المسألة مفاضلة بين
ريح وخسران.. فأرياح الدنيا وهمية مهما تتشامخ طولاً وعرضاً.. لأنها
عاجلة، ومتقلبة، ثم نهايتها موت يفضى إلى حساب وعذاب..
أما ريح الآخرة، فهو اليقين الذى لا يقين مثله، وهو الريح حقاً..
وكل شىء فى الدنيا يتركه الإنسان خوف الفتنة أو الانشغال به عن
طاعة ربه، سيأخذ أحسن منه مضاعفاً يوم الخلود.
يقول "الشعبى" :

"ما ترك أحد فى الدنيا شيئاً، إلا أعطاه
الله فى الآخرة خيراً منه" ..

بل إن للفقراء موكبهم فى الجنة.. ولهم فى الآخرة ثواب يتواءم

مع الفقر الذى اختاروه فى دنياهم طائعين، أو رزئوا به فصبروا عليه، بل
تقبلوه شاكرين..

يقول "إبراهيم النخعي" :

"يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء..
مثلهم فى ذلك كمثل سفينتين تمخران
البحر..

مرت الأولى، وليس فيها شىء من متاع،
فقال الآذن بالعبور: خلوا سبيلها..

ومرت الأخرى مثقلة موقرة، فقال:
احبسوها، حتى ننظر الذى فيها" !!

مثل بارع.. وكم كانوا بارعين فى ضرب الأمثال يعلمون بها
الناس.

* * *

وهكذا لم تكن علاقتهم بالموت علاقة خوف ورهبة، أكثر مما هى
علاقة إيلاف ومحبة.

ذلك أن الموت عندهم ليس نهاية، إنما هو انتقال من دار إلى
دار.. ومن عالم إلى عالم.. ومن أهل إلى أهل..

هذا "أبو حامد الغزالي" رضى الله عنه يقول:

لا تظنوا الموت موتاً إنه حياة وهو غايات المنى

لا ترعكم هجمة الموت فما هو إلا انتقال من هنا

إن الناس فى حياتهم الدنيا، لا يسرهم أن يتجمدوا عند منزلة
واحدة من منازلها.

فالتالب فى المرحلة الثانية - مثلا - فعد وبعثه وبعأب لكى فنتقل إلى المرحلة الجامعية.. وحين فبلعها، فبذل قصارى جهده لففنتهى منها، وففنتقل إلى ما بعدها فى حفاة الوظيفة والعمل.. والموظف فى درجة ما ففئوق وففئتحرق شوقا إلى الدرجة التى فوقها.. والناس ففجميعا، بل حتى الطفور، ففبحث دائما عن الحفاة الأفضل، وففهاجر إلى ففئ حيث الرعد والخصب .

هذا ففبسط لحقفة "الموت" .. فما هو إلا الفنتقال من هنا . كما قال الإمام الفزالى..

من أجل هذا، كان ففبعث قلق عظم لأهل الله وأصففائه، وكان مناط أشواقهم أيضا.

إنهم ففئذكرون بهاء وعظمة الحفاة التى ففئنتظر المؤمنف بعد ففغادرتهم هذه الدنيا.. ففطفر قلوبهم شوقا إليها.

ثم هم من شدة خشفئتهم الله وففوقفرهم إفاه ففحاذرون أن ففقصر بهم أعمالهم، فففرهبون هذا الفنتقال!!

ففبب أن الشعور الأكثر سفطرة على روعهم هو لا ربب الاطمئنان إلى عفو ربهم ورحمته ونعمته ورضوانه.

ومن ثم فهم والموت فى صداقة حمفمة، ففحبونه.. وففئنتظرون مقدمه فى ففبور وشوق .

قل للإمام "الجنفد": إن "أبا سعفد الخراز" كان فففىض وففدا ففئما ففضرته الوفاة .. فقال:

"لفس بعفبب أن ففطفر روجه اشتفاً!!"

إنهم أصفءاء الموت وعشاقه، ففدام الفلل الذى جاء ففأخذ

بأيديهم إلى مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر من
نعيم الله وعطائه.

يقول "علي بن سهل الأصبهاني":

"أتظنون أني أموت كما يموت الناس؟..

"إنما أدعى.. يقال لي: يا علي، فأجيب" !!

هذا هو الموت عندهم.. دعوة من الملأ الأعلى يسارع المؤمن

إلى تلبيتها جذلان، نشوان!!

ومن عجيب أن "ابن سهل" مات كما تنبأ.. فذات يوم وهو يسير

بين نفر من إخوانه ومريديه.. وقف فجأة وصاح: لبيك.. ثم مال على

أكتاف صحبه وفاضت روحه..

أف عجيب إذن أن تضجرهم الدنيا، وأن يضيقوا بها، ويهربوا منها

ويتعجلوا الرحيل عنها، مادام أمامهم ومن ورائها ذلك الخلود المفعم

بالمباهج والرضوان؟؟ !!

تري، ماذا كان موقفهم العملي في الحياة؟ هؤلاء الذين اتخذوا

من الزهد ومن الورع سفينتهم، يبحرون بها إلى المرافئ البعيدة

والسعيدة..

هل عاشوا لأنفسهم وحدها، عاكفين عليها، مولين ظهورهم للناس

ولمشاكلهم.. ومحايدين القوى والأوضاع التي تدفع تيار الحياة في

الدولة والمجتمع؟؟

لقد قهر "أهل الله وأولياؤه" الدنيا، كما لم يقهرها أحد..

ولقد صاروا ملوكها حقا حينما نبذوها وراءهم ظهريا واتخذوها

معبرا، لا مستقرا.

وكان موقفهم من إغراء السلطان وصوله السلاطين آية ما مثلها
آية على عظمة النهج الذى شكل زهدهم فى الدنيا، وهدى خطواتهم
الراسخة فوق أرضها وبين أهليها.

لقد كانوا يرون أنفسهم وهم فى أسماهم البالية فوق كل ملوك
الأرض وكبريائهم. لا صلفا أو غطرسة. بل توقيرا لنعمة الله عليهم
وحفظا لحقها..

إن الله العلى القدير قد كرمهم فى كتابه أبلغ تكريم..
لطالما ضمهم إلى جلاله الأعلى وهو يتحدث عنهم فيقول
سبحانه:

"أولياى" !!

ماذا فى الدنيا وفى ألف دنيا مثلها، من تيجان، وسلطان، وثناء،
وجاه.. لا أقول يعدل، بل يحدث نفسه بالاقتراب من هذا الشرف الأسنى
والأسمى..

صحيح أنهم لم يضعوا أنفسهم قط فى هذا المقام من الولاية..
وكانوا يرفضون فى قوة كل إطراء لهم بها.. وكان إحساسهم الجياش
بجلال الحق سبحانه يجعلهم فى أعينهم ضئلا.. لكن رغم هذا كله، فقد
كان تقديسهم للرداء الذى كساهم الله إياه قمينا بمنحهم ذلك الشعور
الواثق الذى يضع كل مغريات السلطان والمال والدنيا تحت أقدامهم.
ولم يكن حياؤهم الشديد من الله، وتلاشيهم أمام جلاله ليغير
شينا من حقيقة أنهم أولياؤه المتقون والمقربون.

إن موقفهم من السلطان ومن الحكام، ملوكا أو ولالة، يبدأ

بالاستغناء المطلق عنهم.. فكل ما بأيديهم من نفوذ، وجاه، ومناصب وأموال، أشياء ودّعها "أهل الله" من زمان بعيد وكبروا عليها تكبيرات الموت، ولم يفقدوا الرغبة فيها وحسب.. بل صارت ذات رائحة كريهة تملأ نفوسهم بالغثيان..

بل أكثر من ذلك رأينا الكثير منهم رضى الله عنهم، لا يهرب من اللوباء القاتل الكاسح حين ينزل بلدا هم فيه.. بينما أخبار هروبهم من المناصب الكبرى التى تُفرض عليهم ومن العطايا التى يرسلها الحاكمون إليهم، بل ومن المودة الملحقة التى يعرضها عليهم الأمراء.. أقول إن أخبار هروبهم من ذلك كله تزدهم بها كتب التاريخ، هم الذين لم يكونوا يهربون من الأوبئة الفاتكة الماحقة.

واستغناؤهم عن الأمراء وعما فى أيديهم يتمم لنا - كما قلنا من قبل - صورة الزهد الذى اختاروه لأنفسهم.

ولنطالع هذا النبأ ويطله "صفوان بن سليم" :

"قدم سليمان بن عبد الملك المدينة وأم مسجدها فرأى فى زاوية من المسجد رجلا يصلى، فبهره سمته فسأل عنه، ف قيل له: إنه صفوان بن سليم.

فأمر تابعه أن يذهب إليه بكيس فيه خمسمائة دينار

ووقف التابع بعطاء الخليفة أمام صفوان وقال له: إن أمير المؤمنين يرسل إليك هذه.

فعجب صفوان وقال له: لقد أخطأت يا
ولدى لست أنا الذى أرسلك إليه..
قال التابع: أو لست صفوان بن سليم؟ لقد
أشار بيده نحوك وسماك لى باسمك؟
قال صفوان: إذن فاذهب واستوثق منه مرة
أخرى..

وعاد التابع صوب الخليفة الجالس هناك
فى ركن قصى من المسجد..
وعندئذ تسلل صفوان من المسجد،
واختفى من المدينة كلها.. ولم يظهر بها
إلا بعد أن غادرها الخليفة سليمان!!
هذا نبا يغنى عن أنباء كثيرة، لنرى كيف، وإلى أى مدى وبأى
صدق كانوا يرفضون "الهبات الملكية" ويهربون منها!!
لقد كانوا يرون فى قرع أبواب ذوى السلطان والحكم نقصا فى
الدين لا يكاد يضاهيه نقصان..

ها هو ذا "جعفر الصادق" رضى الله عنه يقول:
"الفقهاء أمناء الرسل، فإذا رأيتموهم
يقرعون أبواب السلاطين فاتهموهم"
وهذا "ميمون بن مهران" يقول: "لا تعرف الأمير ولا تعرف من يعرفه"
وهذا "سعيد بن المسيب" يقول:
"لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا
وقلوبكم منكرة حتى لا تحبط أعمالكم" ..

ولكن، لماذا يتوقون القرب من الخلفاء والأمرء والوزراء كل هذا التوقى، ولماذا يهربون منهم كما لو كانوا ذئابا ستخطف منهم إيمانهم، وتقواهم.

إن "أبا حازم سلمة بن دينار" رضى الله عنه يعطينا لذلك تفسيراً. لقد كان "الزهرى" إلى جانب صلاحه وتقواه عالماً كبيراً وفقهياً ومحدثاً.. وكانت له بين الناس مكانة العلماء الهداة.. وكان موضع احترام الخليفة عبد الملك بن مروان - ولقد بادله الزهرى هذه المودة فكان يزوره ويحضر مجالسه.. ولم يشفع صلاحه ولا خلقه لدى "أبى حازم" وكان الزهرى يجله إجلالاً كبيراً.. فكتب "أبو حازم" إليه يقول فى رسالة مطولة، نقتطف منها هذه الفقرات:

"عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن،
ورحمك من النار، فقد أصبحت بحال
يبتغى لمن عرفك بها أن يرحمك منها.
لقد أثقلتك نعم الله عليك بما أصبح من
بدنك، وأطال من عمرك، وفقهك فى دينه..
اعلم أبا بكر أن أدنى ما ارتكبت وأعظم
ما أحتقبت، أنك آنتست الظالم، ومسهلت
له طريق الغى، بدنوك منه حين أدنيت..
وإجابتك له حين دعيت..

لقد جعلوك قطباً تدور رحى باطلهم
عليك، وجسراً يعبرون عليه إلى ضلالتهم

وتعللاتهم..

يدخلون بك الشك على العلماء،

ويقتادون بك قلوب العامة إليهم..

وما تبلغ من نفوسهم مكانة أخص

وزرائهم وأقوى أعوانهم، إلا بقدر ما

تروج لفسادهم، وتسوق الخاصة والعامة

إليهم..

فما أهون ما عمروا لك، في جنب ما

خربوا عليك..

وما أقل ما أعطوك في كثير ما أخذوا

منك" !!..

بهذه الكلمات التي تشرح نفسها ولا تحتاج من الإيضاح لمزيد،

يفسر "أبو حازم" موقفهم الصارم من صحبة الحكام، بل ومن مجرد

معرفتهم..

ترى، هل يمكن لمن هذا موقفه من زيارة السلاطين والولاة أن يقبل

ولو بجذع الأنف أن يكون سلطانا، أو واليا؟

لا.. ودون ذلك كل ما بين نواجد الهول من آلام..!

لقد كانوا يجلدون، ويسجنون، وينفون.. مؤثرين ذلك كله على

قبول المناصب التي يتهالك الحمقى عليها تهالك الذباب.

انظروا.. هذا "ميمون بن مهران" يقول:

"وددت أن إحدى عيني ذهبت وبقيت

الأخرى بها، وأنى لم أتول ولاية قط..

قيل له : ولا لعمر بن عبد العزيز؟

قال: ولا لعمر بن عبد العزيز!!

إنه نادم على بضعة أيام قضاها واليا يمضى على صراط مستقيم،
وإنه يؤثر ذهاب بصره إلا شعاعة تبقى ليبصر بها طريقه بين داره
والمسجد، على أن يكون واليا.. حتى لعمر بن عبد العزيز.. الذى هو
"عمر بن عبد العزيز" ولا تزيد!!

وهذه صورة أخرى لقديس آخر، بطلها "أبو وائل شقيق بن سلمة"
.. يقول المعلى بن عرقان:

"كنت مع أبى وائل حين جاء رجل فقال
له: إن ابنك قد عين واليا على السوق .

فقال: والله، لو جئتنى نبأ موته لكان
أحب إلى. لقد كنت أكره أن يدخل بيتى
من ولى لهم عملا"

ولقد عين أحد أبنائه "قاضيا" فقال لخادمه يوصيه: "إذا جاءك
ابنى بشيء فلا تقبله منه"!!.

كانوا - رضى الله عنهم أجمعين - يستعذبون العذاب فى سبيل ألا
يطوقوا بمسئوليات مناصب يعلمون تمام العلم أنهم لن يستطيعوا أن
يرفعوها إلى مستوى ورعهم وتقواهم.. ومن ثم حُقَّ لهم أن يتركوها
وينبذوها.

بل - ويا عجباً - لم يكن بعضهم يرى فى هذه التضحية حتى مجرد
فضيلة ومشوبة.. بل كان ينظر للألم الذى ينزله به تعذيب الطغاة تذكرة
وذكرى لعذاب النار يوم القيامة!!.

ولندع "الزهرى" يقص علينا هذا النبأ عن "زين العابدين على بن الحسين" عليه وعلى أبيه وأهله صلاة الله وسلامه..

لقد كان "عبد الملك بن مروان" قد اسندعاه من المدينة إلى الشام ليقيم بجواره، ورفض.. فحملة الحرس بالقوة وأثقلوه بالحديد. وقبل رحيلهم به طلب "الزهرى" أن يزوره.. وكانوا يعرفون مكانته عند الخليفة فأذنوا له.. ولندعه يكمل النبأ العجيب:

".. دخلت عليه وهو فى قبة.. والقيود فى

رجليه، والغل فى يديه فبكيت وقلت له:
وددت أنى مكانك ولا يصيبك مكروه..

فقال لى: يا زهرى.. أتظن هذه السلاسل
تُكْرِئْنِى؟ أما أنى لو شئت ما كان من ذلك
شىء..

ثم هز يديه فانفرج الغل.. وهز قدميه
فتفسخ القيد..

وعاد يقول: ولكن دعها تذكرنا عذاب
الله!!

هذا القديس الأعزل، يدخل على عبد الملك بن مروان ذات يوم
ويمكث معه لحظات، ثم ينصرف، فيتنفس الخليفة الصعداء ويقول لمن
حوله:

"والله لقد امتلأ قلبى منه خيفة!!

ولقد كان من أولئك الأبرار من يرفض تلك المناصب بالحيلة

والدهاء، حتى ينجو من التعذيب الذي يتعرض له الآخرون..
 فهذا "يزيد بن مرثد" أراد الوليد بن عبد الملك أن يولييه عملاً..
 ورأى أن قد أحيط به فماذا يصنع؟ .. إنه لا يحتمل عذابهم ولا
 سجونهم. وفي الحيلة متسع للهروب.
 وهكذا جاء بجلدة خروف مدبوغة وكساها ظهره جاعلاً الجلد
 على الظهر والصوف خارجه.. وسار في الطرقات بلا قلنسوة ولا نعل.
 متظاهراً بالجنون. حتى نقلت أنباء علته هذه إلى الوليد فولى غيره..
 وبعدها شفى الشيخ من الجنون!!

* * *

وقد يكون وجود الأمويين على رأس السلطة يومئذ من الأسباب
 القوية لرفض الصالحين من عباد الله ولاية المناصب الحاكمة.
 بيد أن ذلك لا ينفي أبداً وجود ذلك العزوف بل ذلك الرفض
 للسلطة أياً ما تكن قمة الهرم فيها - أموية.. أم عباسية..
 ألم نسمع من قريب قول قائلهم:
 "... ولا لعمر بن عبد العزيز" ...

ثم لقد كانوا كذلك في غير عصر الأمويين..
 فلماذا كان ذلك كذلك؟ وبم نفس ذلك الرفض المستمر؟؟
 ها هي ذى عبارة تفسره بعض الشيء، يقولها "مكحول الشامي":
 "لأن يضرب عنقي، أحب إلى من أن إلى
 القضاء..
 ولأن إلى القضاء، أحب إلى من بيت
 المال" ..

فمن روح هذا الرأى الحكيم نرى رجلا لا يهرب من المسئولية، وإنما يهرب من احتمال الخطأ فيها.

إنه فى القضاء عرضة لأن يخطئ فى حكم أو تلتبس عليه الأمور.. وذلك عنده أمر أهون منه الموت، حتى وهو يعلم أن من اجتهد وأخطأ فله أجر!!

ولكن إذا لم يكن من الولاية بد، وكان له الخيار. فالقضاء أحب إليه وأيسر عليه من بيت المال.

والأمر فى هذه المفاضلة راجع إلى تقديره.. والذى يعيننا هنا ما يفينه علينا حديثه من تفسير لجزعهم من أن يكونوا ولاية وحكاما.

* * *

وهنا سؤال يواجّهون به لا محالة.. فإذا ترك الصالحون الورعون أمور الحكم، ففى يد من ستسقط؟.. فى يد الآخرين الذين ليسوا بصالحين. ولا ورعين طبعاً، فهل بهذا الموقف يكون "أهل الله" قد خدموا القضية التى يعيشون من أجلها؟.

وفى تقديرى أنهم بادئ ذى بدء لا يرفضون هذا السؤال فحسب، بل ويرفضون الحق فى توجيهه.

فكما أن ورعهم وتقواهم لا يؤهلانهم - بالضرورة - لأن يكونوا أطباء أو مهندسين مثلاً، فكذلك لا يؤهلانهم لأن يكونوا حكاما. لقد خصص أولئك الأبرار وتبتلوا لغاية أبعد ما تكون عن الحكم ومشاكله.

ثم إنهم لا يقبلون ولو أنزل بهم كل عذاب أن يتخلوا عن ذرة من ذلك التفوق الروحى الذى أحرزوه .

إنهم يمارسون مسئوليتهم عن أنفسهم فى مستوى عال من الورع..
وبالتالى، فحين يحملون مسئولية تجاه غيرهم من الناس فلا بد أن
يحتفظوا بذلك المستوى لأنفسهم على الأقل إذا لم يستطيعوا أن
يرفعوا إليه الذين سيلون أمرهم.

وهذا موضع شكهم الكبير - لا سيما فى العهود التى عايشوها..
أيام الأمويين والعباسيين، حيث فتحت الدنيا على الناس كل مباحجها
وفتنتها وخطاياها.

ولقد رأينا كيف كان بعض أصحاب رسول الله يهربون من مناصب
الولاية فى عهد "عمر بن الخطاب" إمام الأئمة فى ورعه وعدله وتقواه..
أفيلام أولئك الذين يهربون منها بعد أن تحولت الخلافة الراشدة إلى
ملك عضوض؟!

* * *

ثم إن "أهل الله" فى موقفهم هذا، لم يعدوا التجربة التى تزيدهم
تصميما على موقفهم، فقد قبل بعضهم الولاية راجيا أن ينقل إليها بعض
فضائل القوم وورعهم.. فما كانت تنقضى شهور، وربما أيام حتى يفر
بدينه!!.

هذا "هرم بن حيان" يقبل العمل كأمير لإحدى الولايات.. فكان
أول ما ملأ نفسه غثيانا وجزعا، ذلك الملق الذى أحاطه به صغار
النفوس - وما أكثرهم!! - ولكنه تصرف بسرعة.. فذات يوم علم أن بعض
الوفود قادمة لزيارته. فنهض وأوقد نارا عظيمة أمام داره، وأخذ كلما
خبت زادها وقودا!!.

وجاء الوفد.. ووقفوا من وراء الناس يحيونه.. وهو يبتسم لهم

ساخرا ويقول: مرحبا.. اقربوا..

قالوا: ما نستطيع من النار.. إنها تحول بيننا وبينك.

وهنا ناداهم بصوت جهير:

"إنكم تريدون أن تقذفوا بي في نار أشد

من هذه وأعظم.. نار جهنم" !!

وأدركوا ما يريد، ورجعوا بسلام..

ومضت أيام، وهو يظن أنه سيصبح قادرا على تحقيق بعض ما

يريد..

ثم جاء يوم غضب فيه على رجل لأمر يستدعى الغضب، فقام إليه

وضربه.. ثم لم يلبث أن أخذه ندم قاتل.. وصاح فيمن حوله:

"لا جزاكم الله خيرا، إذ لم تنصحنى

ولم تردوني عن غضبي، والله لا ألى لكم

عملا" !!

ثم ترك الولاية من فوره..

إنهم إذن مهما يحاولوا لا يستطيعوا أن يحيوا إلا في مناخ آخر،

خلق لهم وخلقوا له.

ومع هذا، فهل يحسب حاسب أن في موقفهم ذاك أدنى قدر من

السلبية؟.

هيات أن يصح ذلك، ثم هيات..

فأولئك الذين استعلوا على مناصب يتهافت عليها الناس

ويتهالكون لم يكن يفزع الخلفاء والسلاطين خطر، مثلما تفزعهم

أصواتهم الجهيرة تزجرهم عن الظلم وتحقر كل ما معهم من قوة باطشة

وجاه عريض..

لقد كانت مواعظهم اللافحة تدق قلوبهم بعنف، وتقرع أسماعهم في دوام.. لا مجاملة ولا مصانعة!!

ومن خلال مواعظهم تلك، نقف على خط من فلسفتهم وأفكارهم حول وظيفة الحكم وواجبات الحاكم.

هذا "أبو مسلم الخولاني" رضى الله عنه، يدخل على "معاوية" وهو من هو بأسا وملكا وقوة.. بطانته حاقون حوله، فيحييه "أبو مسلم" قائلا:

"السلام عليك أيها الأجير"

وتتراكض الحاشية في فرع مما سمعت. ويقولون لأبى مسلم هامسين: قل: أيها الأمير.. فيعيد "أبو مسلم" الكرة..

"السلام عليك، أيها الأجير"

فيقول "معاوية" لصحبه: دعوه، فإن أبا مسلم يعرف ما يقول: ويواصل "أبو مسلم" حديثه لمعاوية:

"إنما مثلك مثل أجير أؤتمن على ماشية ليحسن رعيها، ويوفر ألبانها، وينمى الصغيرة، ويسمن العجفاء..

فإن هو فعل، استحق أجره وزيادة، وإن هو لم يفعل نزل به عقاب مستخلفه ولم ينل أجراً..

يا معاوية، إنك إن عدلت مع أهل الأرض جميعا، ثم جرت على رجل

واحد، مال جورك بعدلك..

يا معاوية، لا تحسبن الخلافة جمع
المال وإغداقه إنما الخلافة، العمل
بالحق، والقول بالمعدلة، وأخذ الناس
في ذات الله..

يا معاوية، إن الناس لا يبالون بكدر
الأنهار ما صفا النبع وطاب..
وإن مكان الخليفة من الناس، مكان
النبع الذي يرجون صفاءه

* * *

بمثل هذه الروح، كانوا يتعاملون مع أولى الحكم والسلاطان
يعظونهم ويجاوزون الموعظة إلى الزجر عندما تدعو للزجر دواعيه.
وهم بهذا إنما يشاركون - حقيقة - في حمل كل تبعات الحكم
الذي رفضوا مناصبه.. فالحكم قد يكون محصورا في وظائفه الذي
رفضوا مناصبه من ناحية الشكل. أما من حيث الموضوع والمسئولية،
فكل مشورة صادقة تقدم إليه.. وكل نصيحة جادة تسدى إليه.. وكل
معارضة أمينة تتوخى تقويمه.. كل أولئك إنما يشكل مشاركة حقيقية
وفعالة في حمل مسئولياته الثقال.

يقول "أبو مسلم الخولاني" :

"لا يصلح الناس إلا بإمام، ولا يصلح
الإمام إلا بالناس"

فهم إذن لا تغيب عنهم ضرورة أن يكون للناس إمام ورئيس دولة

يحمل مع الآخرين تبعات السلطة الممنوحة له من الأمة ليحقق لها أسباب الحياة العادلة الصالحة الكريمة.. وكذلك لا تغيب عنهم ضرورة أن يكون الناس شركاء في الحكم، وأن يكونوا من الجدارة والاعتصام بالحق والعدل والخير إلى الحد الذي ينعكس فيه ذلك كله على إمامهم.. (فكما تكونوا يُولَّ عليكم).

وكما قال أبو مسلم (ولا يصلح الإمام إلا بالناس).

فالحكم عندهم إذن يخلق بجناحين - الحكومة، والشعب..

ومسئولية الحكم مفروضة على الحاكم والمحكوم معا..

وإذا كان "أهل الله" يهربون من مناصبه ومغانمه ومبائله، فقد

استبقوا لأنفسهم المشاركة في المسئولية عن طريق معارضتهم الشجاعة لكل انحراف، وتنديدهم الصارخ بكل جنوح.

ولقد كان إخلاصهم الوثيق يفتح لهم قلوب الخلفاء والأمراء

طوعاً أو كرهاً.. وحتى أولئك الذين كانت قلوبهم موصدة، كانوا

يخجلون ويتضاءلون حين يرون ناساً بسطاء في أسمال بالية يتحدثون

سلطانهم، ولا يعباؤون بالسيف ولا بالذهب.. وحين كانت كبرياؤهم

تدفعهم لاضطهادهم لم يكونوا يأملون قط أن يشيهم الاضطهاد عن

مواقفهم، إنما كانوا يتوسلون باضطهادهم لتخويف العامة وترويع الناس

حتى لا يسلكوا ضدهم ذات السبيل.

* * *

ولم تكن مجاملة بعض الخلفاء والحكام للكثيرين من "أهل الله"

وأوليائه "لتحملهم على المهادنة والملاينة.

لقد كان هناك بعض خلفاء بنى أمية - مثلاً - مشغوفين بأن يسمعوا

مواظب أولئك الأبرار حتى وإن أخرجتهم وأذلتهم.
أولا يستحق هذا، ولو بعض الملاطفة في توجيه النصيح والحديث
إليهم؟..

إن لكلمة الحق عند "أهل الله" أسلوبا واحدا لا يتغير.. فإن كانت
لحاكم متواضع متطلع إلى إصلاح نفسه وحكمه، قالوها رقيقة وادعة..
وإن كانت لمتغطر صلف، أو جبار مستكبر لفحوه بها كالسياط
المفتولة!

هذا أحدهم، يقول لمالك بن دينار: ادع الله لي، فيجيبه:
"كم من مظلوم بالباب يدعو عليك".
وآخر، يسأله الدعاء أيضا فيجيبه:

"كيف أدعو لكم، وألف يدعون عليكم"
أيستجاب لواحد، ولا يستجاب لألف؟؟
وذاك خليفة آخر ملأ الدنيا بأسه ونفوذه، تراوغة ذبابة، وكلما
هشها سقطت على وجهه، فيتوجه إلى "جعفر الصادق" رضى الله عنه
بسؤاله، وكان حاضرا مجلسه ذاك:

"يا أبا عبد الله، لماذا خلق الله الذباب؟؟"
فيجيبه جعفر:

"ليذل به الجبابرة!!"
ويكتب "زر بن حبيس" إلى عبد الملك بن مروان يعظه وينصحه،
ثم يقول في آخر رسالته إليه:
"ولا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول

الحياة ما ترى من صحتك، فأنت أعلم
بنفسك .

واذكر قول القائل:

إذا الرجال ولدت أولادها

ويليت من كبر أجسادها

وجعلت أسقامها تعودها

فذى زروع قد دنا حصادها!!

إنه حتى في المرض لا يجامله بكلمة مشجعة.. بل ينتهز فرصته
ليذكره بالموت، فيقول له: أنت أعلم بنفسك، رغم ما يبدو من توهم
الصحة.. ثم لا يبشره، بل يذكره بالمصير المحتوم "فذى زروع قد دنا
حصادها"!!

* * *

حقا، لقد كان من رحمة الله بالناس، ومن آيات توفيقه أن رفض
أولئك الأبرار دنيا السلطان والملك، ووقفوا على منابر من نور الحق
يرسلون كلماتهم هذه، ويتخذون مواقفهم تلك.

لقد كانوا مرافق العافية للإيمان وللمؤمنين.. وكانوا الصورة
المشرقة والمشرقة للدين.

وكانوا بنبذهم الدنيا، وبشجاعتهم في الحق، وبولائهم المطلق لله
وكلماته، إنما يجددون باستمرار لفضائل الروح شبابها، ويفيئون على
الشخصية الإنسانية على اختلاف دينها كل التماسك والصلابة والأمل..
وقبل هذا كله، كانوا إعلانا صادقا وبرهانا وثيقا على أن القوة
الحقة.. القوة الغالبة المنتصرة هي "قوة الروح"، لا قوة العضلات، ولا

قوة المنصب، أو المال، أو الجاه .

لقد رأى الناس ببركة هؤلاء الأبرار وبفضل سلوكهم كيف تخضع وتنخس كل مظاهر القوة والكبرياء لكلمات عزلاء.. كانت مشاهدهم وملامحهم مع الخلفاء والولاة تسرى في الديار والأقطار مسرى الرياح والبشريات فيعب الناس من أنفاسها ما يفجر في أرواحهم أشواقها إلى التسامى والإيمان، وكان "أهل الله" على إدراك لهذه الحقيقة.. حقيقة أن كل كلمة عادلة وصادقة وشجاعة يقرعون بها أسماع حاكم جائر، إنما تمثل وحدها كتيبة من كتائب الهداية والفضيلة والمعروف .

ولطالما تحدث الناس بذلك الحوار الذي كان يجري بين "أبي حازم ابن دينار" وبين الخليفة الأموي "عبد الملك بن مروان" فيعتزون به، ويعزون، ويرون فيه إعلانا لسيادة كل مؤمن في كل صقع ومكان. بل إن "الخليفة عبد الملك" نفسه، كان ينبهر بروح "أبي حازم" وكلماته، فلا يترك فرصة يظفر فيها بمجلس معه إلا اهتبلها مخاطرا بكل ما تتعرض له هيئته من اهتزاز تحت وقع الكلمات القواطع التي يرسلها "أبو حازم" في وجه الخليفة، ماضيات كالسيوف المرفهة!!

ذهب "عبد الملك" يوما لزيارة المدينة. ودعى "أبو حازم" للقاءه،

فما كاد يراه حتى دار بينهما هذا الحوار؟.

الخليفة : يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟.

أبو حازم : أى جفاء رأيت منى يا أمير المؤمنين؟

الخليفة : وجوه الناس زارونى ولم تزرنى ..

أبو حازم : ما عرفتنى قبل هذا، ولا أنا رأيتك .

الخليفة : يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت ؟.

أبو حازم : لأنكم عمرتم الدنيا، وخربتم الآخرة فتكرهون الخروج من العمران إلى الخراب.

الخليفة : صدقت.. ترى ماذا لنا عند الله غدا؟

أبو حازم : اعرض نفسك على كتاب الله تعرف مكانك غدا..

الخليفة : وأين أجده في كتاب الله؟

أبو حازم : عند قوله تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ..﴾.

الخليفة : فأين رحمة الله إذن؟

أبو حازم : قريب من المحسنين..

الخليفة : وكيف لنا أن نصلح أنفسنا؟

أبو حازم : تتركون الصلف، وتتمسكون بالمروءة، وتقسمون بالسوية، وتعطلون بين الناس، وتأخذون المال بحقه، وتضعونه في حقه.

الخليفة : يا أبا حازم، ألا تصحبنا، فننفع بك وتنتفع بنا؟

أبو حازم : لا ..

الخليفة : ولماذا ؟

أبو حازم : إنني أخاف أن أركن إليكم شيئا قليلا، فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا أجد لي منه نصيرا.

الخليفة : إذن فارفع إلي حاجتك أقضها لك..

أبو حازم : تدخلني الجنة، وتحرم علي النار.

الخليفة : ليس ذلك لغير الله ..

أبو حازم : وليس لى حاجة سواها !!

الخليفة : يا أبا حازم ، ما رأيك فينا ؟

أبو حازم : ألا تعفينى من هذا السؤال ؟.

الخليفة : إنها نصيحة تلقىها إلينا .

أبو حازم : "إن آباءك اغتصبوا هذا الأمر من الناس .

أخذوه عنوة بالسيف من غير مشورة ولا اختيار - يعنى

بذلك الخلافة والحكم - وقد قتلوا من أجله خلقا

كثيرين، وبعد حين رحلوا، فلو تدرى مصيرهم عند

الله؟!..."

وهنا ضاق الحاضرون أو بعضهم، أو تظاهروا بالضيق، فقال

أحدهم لأبى حازم: "بئس ما تخاطب به الخليفة"

فلفحه "أبو حازم" بصوت غضوب:

"كذبت .. إن الله أخذ على العلماء ميثاقه

لبيّن للناس أمره ولا يكتُمونه!!"

وأمسك الخليفة زمام الحديث مسرعا قبل أن يفلت الزمام ويتفجر

غضب "أبى حازم" فتكون كارثة!! وعاد يسأله النصيح.

الخليفة : يا أبا حازم، أوصنى...

أبو حازم : نعم سأوصيك وأوجز..

"نزه الله تعالى وعظمه، بحيث لا يراك حيث

نهاك.. ولا يفتقدك حيث أمرك".

وهم "أبو حازم" بالانصراف، فقد منح الخليفة من وقته الثمين ما لم يكن سيظفر منه لولا رغبة "أبي حازم" في أن يوظفه بتلك الكلمات. وإذا هو ينهض ذاهبا، تناول الخليفة صرة منتفخة بالدنانير وقال لأبي حازم على استحياء: ألا تقبل منا هذه؟.. ونظرها "أبو حازم" باشمزاز وقال:

"والله ما أرضاها لك، فكيف أرضاها لنفسي؟"

يريد بذلك أنها ليست حلالا فيرضاها للخليفة ينفقها على ديناه.. فكيف إذن لأبي حازم، والدنيا كلها لا تزيد في نفسه عن حفنة تراب؟.. ولأهل الله في هذا المقام مواقف كان أبطالها على يقين من أنها ستنتهي بقتلهم واستشهادهم فما جزعوا وما لانوا.. ولا تلفتوا باحثين عن خلاص أو نجاة.. ذلك لأنهم لم يروا الخلاص قط في استبقاء الحياة، بل في استبقاء إيمانهم وفضائلهم واستعلائها فوق الحياة!! من هذا الطراز، وتلكم المواقف، "سعيد بن جبير" وموقفه من الحجاج..

لقد صمم الحجاج على قتله، بيد أنه أراد أن يتم مصرع "ولى الله سعيد" في مشهد درامى يشبع جوع الحجاج وسعاره إلى التشفى والانتقام.. كما أراد أن يسترد بعض هيئته بكلمات ظن أن رهبة الموت ستدفعها على لسان "سعيد" في استكانة أو تلطف. لكن "سعيداً" أمام الهول والموت فاجأ الحجاج بما جعله أهون من ذبابة!! ولنطالع هذه الفقرة من حوار طويل دار بينهما:

الحجاج : ما اسمك؟..

سعيد : سعيد بن جبير..

الحجاج : بل شقى بن كسير..

سعيد : أمى أعلم باسمى منك..

الحجاج : شقيت وشقيت أمك !!

سعيد : الغيب يعلمه غيرك ..

الحجاج : لأبدلك بالدنيا نارا تلظى.

سعيد : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها !..

الحجاج : الويل لك يا سعيد ..

سعيد : بل الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار.

الحجاج : اختر لنفسك نوع القتلة التى تريد أن تقتل بها.

سعيد : بل اختر أنت يا حجاج، فوالله لا تقتلنى قتلة إلا قتلك

الله مثلها فى الآخرة!!

وتلعثم الحجاج فى خباله، وفى المهانة التى أنزلها به رجل أعزل

تفصله عن القتل والموت دقائق معدودات، وصاح فى حرسه ليذهبوا به

ويقتلوه..

وهنا ضحك " ولى الله سعيد بن جبير " ضحكة عريضة عالية، زادت

الطاغية جنونا ومهانة، فصرخ فى وجهه: ما يضحكك؟..

وفى هدوء المحيط وقوته أجابه "سعيد" :

"جراعتك على الله، وحلم الله عنك"

واقترب الجلاد بسيفه ليطوح برأس سعيد فما اختلج ولا اهتز له

جفن، بل راح يتلو الآية الكريمة:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

وصاح الحجاج في جلاده ليدير "سعيد" عن ناحية القبلة، إمعانا

في التنفيس عن مهانته..

ولم يكثر "ولى الله" أيضا، وتلا الآية الكريمة:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ. فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ

وَجْهَ اللَّهِ﴾

وفقد الحجاج آخر مسكة في عقله فصاح: كبوه على وجهه..

وفى يقين "أهل الله الأبرار" تلا "سعيد" الآية الكريمة:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا

نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾

ثم سجدى بصره ودعا ربه قائلا:

"اللهم لا تسلطه على أحد بعدى"

عند من - غير أهل الله - نجد كل هذا السمو يا رجال؟.

إنه فى لحظة الهول هذه لا يشغله مصيره.. بل مصاير الآخرين

الذين يتلمظ بهم جنون الحجاج وبطشه.

إنه فى لحظة الهول هذه، لا أمنية له ولا رجاء ولا دعاء سوى أن

يكون آخر ضحايا الطاغية، وأن يحمل وحده النير الذى ينتظر

الآخرين..

ولقد استجاب الله دعاءه، فلم يعيش الحجاج بعدها سوى خمسة عشر يوماً، قضاها في علة قاتلة لم تمكنه من قتل أحد بعد سعيد!!
تري، أية قوة مقتدرة كانت تملأ أرواح أولئك الأبرار؟ إنها قوة الإيمان بالله، والفهم عن الله..

أما الإيمان فتركهم يوقنون أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم.. ودائماً وأبداً لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم..

وأما الفهم عن الله، فقد جعلهم يدركون حقيقة هؤلاء الخلفاء والأمراء..

إنهم ليسوا سوى ناس كبقية الناس.. وإذا كان أحدهم يستطيع بسلطانه أن يقتل. فإن أى معتوه من الناس الذين يملأون الطرقات يستطيع هو الآخر أن يقتل حتى دون أن يقع من المقتول ذنب، أو جريمة..

إنهم - أبداً - لم يروا فى أولئك الحكام العظام جبروت السلطة، ولا تيجان الملك.. بل رأوا ضعف الإنسان، ومذلة الخطيئة!!

أجل.. إن حسن فهمهم عن الله سبحانه، أعطاهم حقيقة هؤلاء الذين يخفون وراء سلطانهم ونفوذهم وسيوفهم وسجونهم أضعف الأنفس وأكثرها فزعا وهوانا!!
لقد قال أحد الأبرار:

"ذنوب بنى أمية، أسرع إليهم من سيوف المسلمين"!!

ولكم كان صادقا، فظلم الحاكم الجائر، هو السيف الذي يهيا
لقطع رقبته.. وكلما أوغل في ظلمه، كان ذلك شحذا للسيف وأرهافا
لحده!!.

من أجل ذلك، نرى "أهل الله" وهم يلفحون الجبارين بنصحهم
وتنديدهم إنما يقفون منهم موقف الرثاء لهم لا الشماتة فيهم، لأنهم
يعلمون أنهم ضحايا حمقهم وجهلهم وظلمهم وكبريائهم الكاذبة
الخادعة، فلو كان معهم وعى وبصر، لعلموا أنهم أثقل الناس أحمالا
بما وضع فوق كواهلهم من تبعات.. وليسوا أكثر الناس شرفا ولا
امتياراً..

ولقد كان "أهل الله" حريصين على تذكيرهم دائما بهذه الحقيقة
فهذا - مثلا - "مالك بن دينار" يقول له المهلب بن أي صفرة:

- ألا تعرفنى؟..

فيجيبه "مالك"..

- بلى، أعرفك حق المعرفة..

فيسأله المهلب:

- وماذا تعرف عني؟..

وبجيبه "مالك":

".. أما أولك، فنطفة مذرة.. وأما آخرك،

فجييفة قذرة.. وأنت بين أولك وآخرك،

تحمل العذرة".

إن "مالكا" رضى الله عنه لا يشتمه ولا يتهم عليه ولا يسخر به،

إنما هو يذكره بحقيقته، التي هي حقيقة كل فرد من بنى آدم..
 فكل واحد منا.. يبدأ وجوده من نقطة مذنرة لزجة.
 وكل واحد منا.. ينتهى فى القبر إلى جيفة..
 وطوال العمر الذى تقضيه بين ميلادنا ورحيلنا نحمل أمعاء ملأى
 على الدوام بالفضلات الكريهة..
 فلو أن كل جبار فى الأرض يذكر حقيقته تلك لأعانتة على تواضع
 كريم..

أما وهم لحقيقتهم ناسون، فإن "أهل الله" يذكرونهم بها فى صدع
 اليقين!!

ولقد تصدى "طاووس" رضى الله عنه يوماً لواحد من أولئك
 الحكام الأشداء.. وأخذ ابنه عليه خيفة، فاقترب منه وهمس فى أذنه،
 يخبره أن هذا الذى أمامه حاكم خراسان.
 فقال "طاووس" لابنه: إنى لأعرفه.. وإنما ألقنه هذه الكلمات ليعلم
 أن لله عبادة لا يعباون بما فى أيديهم من دنيا وسلطان.. وأن سلطانهم
 بغير تقوى لا يزيدهم فى أعيننا إلا هواناً!!

فى هذه الصورة السريعة، والمختارات المقلدة من فلسفتهم تجاه
 الحكم وأفكارهم عنه - نرى قومًا يبلغون الذروة فى أداء ما ائتمنوا عليه
 من رعاية أنفسهم ومبادئهم وحقوق الناس عند ذوى البأس والسلطان.

ولقد كانوا يرون فى موقفهم ذاك من السلطة جهاداً كتبه الله
 عليهم.

ولقد كان الظن بهؤلاء الذين لا ذوا بشعاب الجبال فراراً بأنفسهم من الفتن، أن يحصروا جهادهم في جهاد النفس - فما شغلهم في حياتهم مثل نفوسهم التي لم يكونوا يرضون لها دون الكمال مقاماً. هذا الجهاد. الذي أسماه الرسول عليه السلام - بالجهاد الأكبر.. لكن "أهل الله" وقد تحقق لهم "التكامل الديني" على أفضل نسق، لم يكن ليفوتهم الله واجب.

ولأنهم نماذج كاملة بحق، للإسلام كله - روحانية وشريعة - فقد رأيناهم فوق أرض القتال في المعارك التي كانت تدور بين الإسلام وخصومه أكثر المقاتلين غبطة بالموت واستبسلاً فيه !! ورأينا أفكارهم وكلماتهم عن هذه القضية أفكار وكلمات أبرار بلغوا الذروة في حسن الفهم عن الله، والفهم لدينه. هذا "يحيى بن أبي كثير" يقول:

"ست خصال من كن فيه، فقد استكمل الإيمان:

- قتال أعداء الله بالسيف..
- والصيام في الصيف..
- وإسباغ الوضوء في اليوم الشاتي.
- والتبكير إلى الصلاة في اليوم المطير
- وترك الجدال والمراء، والحق معك
- والصبر على المصيبة"

فهو يجيء بأمور تتصل بالعبادة أساساً، لكنها تتخذ مع كونها

عبادة وسيلة لتربية النفس وتفوقها على ضعفها..

فهو لا يتحدث عن مجرد الصوم.. بل عن الصوم في الصيف وهو من مكاره النفس لما فيه من إرهاق لها.. ولا يتحدث عن مجرد الوضوء أو الصلاة.. بل عن إسباغ الوضوء أى إتقانه في اليوم الرمهرير.. وعن التبكير للصلاة في اليوم المطير - وهما أيضا من مكاره النفس دائما أو غالبا.

وهكذا نرى في وضعه "قتال الأعداء بالسيف" على رأس هذه الخصال الست تبيانا لجزء من فلسفتهم عنه.. فهو ليس فقط ذلك الفرض الدينى العظيم، وليس فقط تلك القربى الحافلة لله ولرسوله ولدينه.. بل هو أيضا مظهر انتصار النفس على مكاره الطاعات، الأمر الذى يسعى "أهل الله" أول ما يسعون لتحقيقه وإحرازه..

وإنهم ليدكرون الناس دائما، بأن الجهاد فى سبيل الله وسيلتهم للنجاة من عذابه..

يقول "يزيد بن مرثد" :

" عينا لا يمسهما العذاب

• عين بكت من خشية الله..

• وعين سهرت من وراء المسلمين "

يعنى عيون المقاتلين التى تسهر لتحمى

التخوم وتوفر الطمأنينة، وتحقق النصر..

كذلك يذكرونهم بأن الجهاد سبيلهم إلى الجنة..

يقول "يحيى بن أبى كثير" :

"موطنان تزخرف فيهما الجنة، وتزين
الحدور العيون..."

• عند الصلاة..

• وعند القتال"

* * *

ويلح أولئك الأبرار على تمجيد القتال في سبيل الله إلحاحا يشير
الدهش حقا، فالعهد بهم رجال صوامع ونسك.. لكن من ذا الذي يفهم
دين الله مثل فهمهم؟ ومن الذي يدرك مثلهم متى يملأون صوامعهم
بالدموع المنشالة من خشية الله.. ومتى يملأون أرض المعارك بدمائهم
المهراقة في سبيل الله!

انظروا...

هذا قديس منهم وبطل "عمرو بن عتبة" رضى الله عنه وعنهم
أجمعين.. يخرج للجهاد ضد الروم وعليه حلة جديدة بيضاء.. يتملاها
ويتأملها طويلا، ثم يقول:

"ما أحسن الدم يتحدر على هذه!!

وإنى سألت الله ثلاثا، فأعطاني اثنين وأنا

أنتظر الثالثة..

• سأله أن يزهدنى فى الدنيا، فما أبالى ما

أقبل منها وما أدبر.

• وسأله أن يقوينى على الصلاة - يعنى على

الإكثار منها - فرزقنيها.

• وسألت الشهادة في سبيله فأنا أنتظرها وأرجوها.

ثم اقتحم المعركة كالإعصار، حتى إذا أصابه أول جراحها نظر إليه فقال:

"إنك جرح صغير، وقد يبارك

الله في الجرح الصغير"!!

يعنى أنه قد يكون سببا كافيا للاستشهاد..

ونال في ذلك اليوم ما تمنى، ولقى الله في عرس المتقين!!

وكان قد اشترى قبل خروجه للقتال فرسا بثمان مرفق أربعه آلاف درهم، فلاموه على ذلك، فكان جوابه:

"إن خطوة واحدة يخطوها في سبيل الله

ويقربني بها من أعدائه، لأحب إلى من أربعة آلاف درهم"

بالله كم هم معجزون وباهرون أولئك الأبرار.. إنهم لا يقاتلون

وحسب.. بل ويمارسون القتال في نشوة المحب العاشق الودود!!

وإن موقفهم هذا من الجهاد ليكشف عن تكامل شخصية المسلم والمؤمن والصوفي والولى فيهم على نمط فريد.

فنفس الهيام والانجذاب والوجد الذى يغشاهم ويملا قلوبهم

بالفرح والشوق حينما يذكرون الله ويعبدونه.. نفس هذا الهيام وهذا

الوجد هو الذى يعاتقون به سيوفهم، ثم مصارعهم فوق أرض القتال في

سبيل الله !!

فعمرو بن عتبة - كما شهدنا - لا يكفيه مجرد فرس يصلح ليقاتل فوق ظهره.. بل لابد أن يتفنن في شرائه ويمهره أغلى المهور والأثمان.. ثم ها هو ذا يتملى ثوبه الناصع الذي ارتداه للمعركة خاصة.. ويرى كم هو جميل.. ولكن المشهد لن يكون فاتنا حقا في نظره إلا إذا ضمخ دمه القاني هذا الثوب الجديد.
ثم يخرج، فيداعب جرحه قائلا:

"إنك جرح صغير.. وقد يبارك الله في الجرح الصغير!!"

عاشق يغنى لموعده المرقوب، ومتيم بقاء الله، يغرد لمصيره!!
وكلهم ذلك الرجل.. بل ذلكم "الرجال"..
فهذا شفيق بن سلمة يقول:

"لأن يكون لى ولد يقاتل فى سبيل الله،
أحب إلى من مائة ألف"!!..

إنه يتمنى لو يكون له ولد يقاتل فى سبيل الله.. فماذا صنع الذين كان لهم منهم بنون وأولاد؟.

ها هو ذا واحد منهم "صلة بن أشيم العدوى" .. يخرج فى غزوة ومعه ولده، وعند المعركة يتملى وجهه المضىء وشبابه الباهر.. ثم يضمه إلى صدره ويدفعه صوب الصفوف الملتحمة وهو يقول:

"أى بنى.. تقدم فقاتل حتى أحتسبك!!"

وبندفع الفتى فيقاتل حتى يستشهد.. وأبوه فى نشوته العارمة يكاد من البهجة يذوب..

ثم ماذا؟.. صبرا. فالإعجاز لم يبلغ بعد تمامه.. ولسوف يبلغه
عندما تذهب النسوة بعد المعركة إلى زوجة "صلة بن أشيم" وأم الفتى
الشهيد، واسمها "معاذة العدوية".

ذهبن إليها معزبات، فإذا بها تهتف في وجوههن:
"إن كنتن جئتن لشهتئتنى، فمرحباً بكن،
وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن!!"
ويحدثنا "مالك بن دينار" عن أخ له فى الله، هو "عبد الله بن
غالب" وقد رآه بنفسه فى إحدى معارك القتال.. يقول "مالك":

"سمعتة يقول وقد تلاحمت الصفوف: إننى
لأرى أمراً مالى عليه صبراً.. روحوا بنا إلى
الجنة..

ثم كسر جفن سيفه، وتقدم فقاتل حتى
قتل..

فكان يوجد من قبره ريح المسك، حتى إن
الناس كانوا يحشون من تراب قبره
وبعفرون ثيابهم لتفوح طيباً!!

* * *

- أفهؤلاء من يقال عنهم إنهم يعيشون فى عزلة؟!!
- أفهؤلاء من يقال عنهم، إنهم نفضوا أيديهم من مشكلات الناس
والحياة وعكفوا على أنفسهم وحدها، لا يعنيه سواها.
- أفهؤلاء، وقد رأينا نضالهم الباهر فى غرفات العرش للخلفاء
والملوك تارة.. وفوق أرض القتال مع أعداء الدين والبلاد تارة أخرى..

أفهلؤلاء كانوا - كما يقال - يحيون في عزلة ويعيشون في السحاب؟
لننظر الآن ماذا كانت عزلتهم؟ ماذا كانت حقيقتها..
وكيف كان فكرهم عنها وموقفهم منها؟..

يقول "مطرف بن عبد الله":

"أنا أفقر إلى الجماعة من عجوز أرملة،
لأننى فى الجماعة أعرف قبلتى ووجهى!!"
هذه حكمة بليغة نستهلُّ بها رؤيتنا لموقف "أهل الله" من العزلة..
والحق أنهم لم يعرفوا العزلة، وإن كانوا - فى تقديرنا - قد عرفوا
الاعتزال..

والعزلة، موقف جانح يحمل صاحبه على الانسلاخ من الجماعة،
وقطع جميع الخطوط التى تصل المرء بها..
أما الاعتزال فنوع من المراجعة، يراجع المرء بها نفسه، والناس
الذين يصحبهم ويعيش بينهم.

فمراجعة نفسه، يعتزل ما يقترب من خطيئة، أو فتور عن الطاعة..
وبمراجعة الناس، يعتزل منهم الفاسد، وكل من لا يكون عوناً على العبادة
والخير.

و "أهل الله" كانوا من أنصار الاعتزال بمعناه هذا.. لكنهم لم
يكونوا من دعاة العزلة المنهزمة الواضعة بينها وبين الحياة سدوداً
شاهقة..

صحيح أن المريدين فى أولى خطواتهم على الطريق، يحتاجون

إلى حياة صومعية يربون فيها أنفسهم ويكونون إرادتهم الجديدة.. بيد أنهم حتى فى هذه المرحلة لا ينفصلون عن الحياة وناسها - فالمساجد ومجالس العلم ومجالس الذكر تجمعهم بالصالحين.. ثم إن الاحتكاك الحيوى أحد وسائل التربية الوثقى. لأن فضائل النفس لا تتكون فى الخواء.. بل فى معمران الحياة وضوضائها حتى يشتد عود هذه الفضائل، وحتى تصقلها الشدائد والصعاب.

وإذا ما اجتاز المريد والمتعبد هذه المرحلة الأولى، واتسقت شخصيته الصالحة، بدأت تبعاته حيال إخوانه المؤمنين تشده إلى علاقات إنسانية راشدة، لا تسمح له بالعزلة أبداً.

وما يبدو لنا "عزلة" ليس فى الحقيقة إلا كدأً وجداً فى السبيل التى اختاروها لأنفسهم، أو أنعم الله بها عليهم..

نحن نظنهم فى "عزلة" لأننا لا نراهم معنا.. وهم ليسوا معنا ولا بيننا، لأنهم هناك فى مستوياتهم العالية مع قوم من طرازهم يمضون على ذات الطريق.. ومع ذلك فهم قريبون منا بقدر ما نحسبهم بعيدين.. ومختلطون بنا بقدر ما نظنهم معترلين..

* * *

إنهم يحيون مع الناس وللناس، ويتخذون من صالحهم شفعاء إلى الله..

يقول "مالك بن دينار":

"اللهم إن كان أخلق وجهى كثرة ذنوبى،
فهبنى لمن أحببت من خلقك!"

ثم إنهم لا يعيشون الحياة والناس فحسب.. بل يعيشونها على

أعلى مستويات المعاشة والصداقة..

وإنهم ليرتفعون بمستوى العلاقات الإنسانية إلى ذروة لا يقدر عليها سواهم..

يقول "السرى السقطى":

"لا تتم المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر: يا أنا!"

ويتساءل "محمد الباقر":

"هل يدخل أحدكم يده فى جيب أخيه،
فيأخذ ما يريد؟"

قالوا: لا..

"قال: إذن لستم إخوانا كما تزعمون!!"

ولطالما عنوا بالعلاقات الإنسانية، ورسموا لها فضائلها وحضوا

الناس على التواصى بها..

يقول "مالك بن دينا":

"ليس لملول صديق"

من ذا الذى يكتشف علاقة الملل بالصداقة فى هذه الصورة الباهرة

سوى أستاذ فى فن الصداقة والعلاقات الإنسانية؟.

فالملل إنسان عجول، قلق، منفر ومقبض.. ومن ثم لا يكون له

أصدقاء.. ولأن "أهل الله" حريصون على إحياء روح الصداقة الفاضلة

بين الناس، راحوا يحذرونهم من الرذائل التى تقاومها.

والعلاقات بين الناس عرضة للملاحاة، ومن ثم لا بد من سعة

الصدر والتسامح..

"إن ظلمت تدعو على من ظلمك، فإن الله

يقول: هناك آخر يدعو عليك..

فإن شئت استجبنا لك، واستجبنا فيك،

وإن شئت وسعنا عفوى يوم القيامة..

ما أروعها من صورة، وما أبلغها من حكمة.. ليس ذلك فحسب.. بل

إن "أهل الله" ليعلموننا أن الإساءة حتى فى صورها العنيفة جديرة بأن

تنسى.. فالذين يسيئون للناس، قد ساء من قبل مسلكهم مع الله سبحانه

وتعالى.. فما نحن فى الميزان تجاه رب العالمين..

يقول "عبد الله بن أبى زكريا":

"ما نقضوا من عهد الله أكبر مما نقضوا

من عهدكم.."

وحكمة أخرى يستنبطها من الأعماق أولئك الأبرار.. هى أن الذى

يقضى حياته بمنجى كامل من السفهاء، إنسان فقد الكثير من أسباب

عزته.. تصوروا هذا!.

يقول "عبد الله بن أبى زكريا":

"ذل من لا سيفه له"

أين نجد مثل هذه الحكمة فى عمقها وإشراقها ودهاء معرفتها

بالحياة وبأسرار النفس والناس؟..

ذا من لا سيفه له؟.. كيف؟..

إنه - رضى الله عنه - ليفهم فهما جميلا آية القرآن الكريم:

"وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من
المجرمين.."

إن هذا العدو، أو هذا السفية هو الذي يظهر للملأ شموخ
فضائله.. ثم من هذا الذي تخلص حياته من عدو يكيد له، أو سفية
يسلط عليه إلا أن يكون تناهى في ضالة الشأن وتفاهة القدر؟
ويهتم "أهل الله" بما بين الناس من عهود، وبضرورة التناصح حتى
يعيشوا إخوانا آمنين.

يقول "بكر بن عبد الله المزني":

"لو قيل لي خذ بيد خير أهل المسجد،
لقلت دلوني على أنصحهم للناس..
"ولو قيل لي: خذ بيد شرهم، لقلت:
دلوني على أكثرهم غشاً للناس"
وكان "ميمون بن مهران" يقول لصاحبه "جعفر بن يرقان":
"يا جعفر. قل لي في وجهي ما أكرهه، فإن
الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له ما
يكره"

ويقول ميمون أيضا:

- "ثلاثة، حق المؤمن والكافر فيهن سواء:
- الأمانة. تؤديها لمن ائتمنتك عليها من مسلم وكافر.
 - "والوالدان، تبرهما مسلمين أو كافرين.

• "والعهد تقي به لمن عاهدت مسلماً أو
كافراً" ..

ما أبعد هؤلاء الذين يرسمون فضائل الاجتماع عن العزلة.. هؤلاء
الذين لم يقدس حقوق الإخاء والصحبة أحد مثل ما فعلوا و قدسوا..
يقول "خالد بن معدان" :

"أخ لك كلما لقيك ذكرك بحظك من الله،
خير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفك
ديناراً"

إنهم يجردون الصحبة من المنفعة الدنيا التي تجعلها صفقة
رخيصة وتحولها إلى علاقات مريبة.
وإنهم ليوصون بالتوادد في كل مناسباته..
يقول "عطاء بن ميسرة" :

"امش ميلاً، عد مريضاً..
وامش ميلين، أصلح بين اثنين..
وامش ثلاثة، زر أخا في الله!!"

ويعرعون الإخاء بالمشاعر الطيبة الودود التي لا تكلف الناس
شيئاً، ومع هذا لا يحسنون عطاءها..
يقول "عمرو بن الزبير" :

"لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطاً،
تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم
العطاء!!"

و "أهل الله" يعلموننا أن نحبي الصداقة بحسن الظن والمبادرة إلى نسيان الإساءة بمجرد الاعتذار عنها.
يقول "ميمون بن مهران":

"ما بلغني عن أحد مساءة إلا كان إسقاطها عنه أحب إلي من تحققها عليه..
فإن قال معتذرا: لم أقل، كان قوله أحب إلي من ثمانية شهود يشهدون عليه!!"

ولقد كانوا يضربون الأمثال للناس. ليس في الصفح وحده بل وفي التفوق البعيد على كل مشاعر الكراهية..
يقول "إبراهيم التيمي":

"إن الرجل ليظلمني، فأرحمه!!
إنه يرثي لظالمه، لأنه إنسان قد شقى بظلمه وأحل نفسه من التعاسة ونقمة الأقدار مكانا أصبح يستحق معه الرثاء والرحمة..
ويقول "إبراهيم" أيضا:

"رأيتني في المنام كأني على نهر، وقيل لي: اشرب واسق من شئت، بما صبرت وكنت من الكاظمين"

* * *

ولقد كانوا يضعون على طريق الصداقة علامات، يعرف بها الذين يزكو الإنسان بصحبته، والذين ليسوا أهلا لدخول جنة الصداقة.
فجعفر الصادق يقول:

"إن صاحب فصاحب الأخيار، فإن

الفجار صخرة لا تتفجر ماؤها، وشجرة لا
يخضر ورقها، وأرض لا ينبت غرسها".

ثم يفصل بعض صفات الأخيار والأشرار فيقول نقلا عن والده
الإمام "محمد الباقر" رضى الله عنهما:

"قال لى أبى: لا تصحبن خمسة، ولا
تتخذهم لك إخواناً..
قلت: من هم؟..
قال:

- الفاسق، فإنه يبيعك بأكلة فما دونها..
- قلت: وهل دون الأكلة شيء؟..
- قال: نعم، يطمع فيها ثم لا ينالها..
- والبخيل، فإنه يخذلك بماله، وأنت
احوج ما تكون إلى معونته..
- والكذاب، فإنه كالسراب - يبعد منك
القريب، ويدنى البعيد..
- والأحمق، فإنه يريد أن ينفعك، فيضرك .
- وقاطع الرحم، فإنه ملعون فى كتاب الله!"

فكل هذا أحاديث منهم - رضى الله عنهم - عن الإخاء، وحقوق
الجماعة، إنما يعطى صورة صحيحة لالتحامهم بالجماعة وبالناس.. بل
إن كثيرا من وصاياهم الحكيمة فى هذا السبيل، كانت ثمرة تجربتهم
الحية فى واقع البشر.. حتى لقد أوصلوا الآخرين ألا يكتفوا فى معرفة

الناس والحكم عليهم بالمظاهر العابرة.. بل بالتجربة الذكية..

يقول "يحيى بن أبي كثير":

"لا يعجبك حلم امرئ، حتى يغضب

ولا أمانته، حتى يطمع..

فإنك لا تدري: على أي شقيّه يقع"؟..

والتحامهم بالجماعة وحملهم تبعات بنائها واضح في موقفهم من

الأسرة والعائلة.

فأهل الله يستجيبون لروح الإسلام في إثراء الحياة ودعم النوع

البشرى بالذرية الصالحة. ومن هنا لم تكن الرهبانية ضمن منهجهم الذي

انتهجوه للسير إلى الله.. وقلما نجد منهم من لم يكن زوجا وأبا. بل

طالما كانوا يحذرون الشباب الوافد على العبادة والنسك من الإحجام

عن الزواج..

هذا "طاووس بن كيسان" يقول:

"لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج"

وإنه ليلقى يوما - إبراهيم بميسرة - أحد العباد الزاهدين،

فيقول له:

"لتزوجن، أو لأقولن لك ما قاله عمر بن

الخطاب لأبي الزوائد: لقد قال له: ما

يمنعك من الزواج إلا عجز.. أو

فجور"!!..

* * *

لكن "أهل الله" وقد كان لهم بالناس وبالزمان بصر عجيب، لم يكونوا ليتركوا حب الناس وبذلهم النصيح والعون لهم، يأخذهم بعيدا عن المناخ الروحي المفعم بروح الرضوان. أجل، لم يكونوا من السذاجة، ولا من الاستعداد لبخس أنفسهم العالية..

لقد كانوا يعايشون الناس حقا، ويوطنون لهم أكنافهم، ويدأبون فيهم بالنصح، ويدرأون عنهم ما استطاعوا ظلم حكامهم وجباريهم. لكنهم كانوا يتجنبون هذر الجماعة وفتنها.. وكانوا يعرفون تماما مع من يعيشون ويتعاملون..

لقد قالوا لمالك بن دينار يوما: ألا تستسقى لنا؟ فقال لهم: "أنتم تستبطنون المطر، وأنا أستبطئ الحجارة!!"

ويقول "مطرف بن عبد الله":

"لأن يسألني غدا، لماذا لم أقتل فلانا، أسلم لي من أن يسألني: لماذا قتلته؟"

هنا يبدو اعتزالهم واضحا.. فالقوم الذين يدفع أحدهم حياته قربانا لله وثمان كلمة حق يصفع بها وجه سلطان جائر، يعرفون متى يتقدمون ومتى يستأخرون..

والقوم الذين يتواضعون للناس حتى لكانهم أدناهم جميعا منزلة، يعرفون كيف يحتفظون لذواتهم بصدارة القدوة الصالحة.. فإذا رأيناهم يتوقون المخالطة حين يفرغون من واجباتهم تجاه

الجماعة، فذلك حقهم المشروع.. بل هو غالباً ما يكون واجباً عليهم ولزاماً..

يقول "الشعبي":

"تعايش الناس بالدين زمناً طويلاً، حتى ذهب الدين من نفوسهم..

ثم تعايشوا بالمروءة، حتى ذهبت المروءة..

ثم تعايشوا بالحياء، حتى ذهب الحياء.. وهم الآن يتعايشون بالرغبة والرغبة، وسيأتي بعد هذا ما هو شر منه!!

ويقول "أبو مسلم الخولاني":

"كان الناس ورقاً، لا شوك فيه.. فأصبحوا شوكة لا ورق معه.."

فكيف يطلب من الأبرار أن يبتذلوا أنفسهم ويعيشوا وسط ناس يتعاملون بالمنفعة وبالخوف.. ناس هم شوك لا ورق له.. ناس يقول عنهم "أوس بن عبد الله":

"إن أحدهم ليأتي عليه جميع يومه

لا يذكر الله إلا حالفاً!!!"

إن "أهل الله" لا يغفلون عن ذكر الله لحظة، فكيف يأنسون بمن لا

يذكر الله قط إلا حين يحلف باسمه.. وكثيراً ما يكون كاذباً في حلفه!!

إنهم يودون أن يعيشوا أعمارهم مع الناس، ويقضى الناس

أعمارهم معهم.. ولكن كيف؟

إن الناس في السوق - تعج أسواقهم بالغش والسرقة والخديعة،
وفي مجالسهم.. تعج مجالسهم بالنفاق والثلب والكذب بل إن بيوت الله
كثيرا ما يجعلون منها مسرحا لدنياههم الباطلة.
دخل "أبو مسلم الخولاني" المسجد يوما، فوجد فيه قوما
مجتمعين، ففرح بهم وأقبل عليهم ظانا أنهم يذكرون الله أو يتدارسون
العلم.. فلما دنا منهم إذ هم يلغون ويهذرون، فنظر إليهم وقال:

"يا سبحان الله!!

"إنما مثلى ومثلكم، كمثّل رجل تعرض
لمطر غزير فالتفت فإذا باب مفتوح، فقال
أدخل هذا البيت أحتمى به من المطر..
فدخل فإذا البيت لا سقف له.
"لقد قصدتكم راجيا أن يكون مجلسكم
مجلس ذكر أو علم أنتفع به. فإذا هو
مجلس دنيا في بيت الله!!"

* * *

إن قلوب "أهل الله" معلقة دائما بجلاله.. وحين يكون أحدهم
معنا بشخصه، ويموا عظه، ومعونته.. يكون في ذات الوقت مع الله بروحه
وبقلبه، وبنيته ورجائه.

وليست في دنيانا كلها ما يغريهم ولا يشغلهم عن الله لحظة.

يقول "مسروق بن عبد الرحمن" :

"ما بقى شيء يرغب فيه إلا تعفير وجوهنا
في التراب"

يعنى دوام السجود لله رب العالمين

أف هذا هو اعتزالهم؟ حبذاه من اعتزال!..

يتحدث صاحب لـ "عمرو بن قيس الملائي" فيقول:

"كنت أطلبه في السوق.. فإن لم أجده في
السوق، وجدته في بيته، إما يصلى، وإما
يقرأ القرآن، وكأنه يبادر أموراً تفوته .
فإن لم أجده في بيته، وجدته في بعض
مساجد الكوفة، وقد أوى إلى زاوية من
المسجد، وجلس يبكى..

فإن لم أجده في المسجد، وجدته في
المقبرة ينوح على نفسه..

ولما مات عمرو، وخرجنا بجنائزه إذا
البرية تمتلىء بطير أبيض لم نر مثله حسنه
وخلقته!!

وأخذ الناس العجب، فقال أبو حيان
التميمي: مم تعجبون؟ هؤلاء ملائكة
جاءوا يشهدون جنازة عمرو!!

فهذا القديس والعبد الصالح "عمرو بن قيس" يبحث عنه من يريده
في البيت مصلياً.. أو في المسجد عابداً.. أو في المقابر معتبراً.. ولكنه

أيضا وقبل ذلك فى السوق يمارس عمله وتجارته.
اعتزالهم إذن، كان تجردا لله.. لعبادته والسعى فى مرضاته بما
يتضمنه السعى من عمل للمعيشة.. ومن عون يبذل للناس.
يقول "خليد بن عبد الله":

"لا تلق المؤمن إلا فى ثلاثة مواطن:

- مسجد يعمره بعبادة الله..
 - أو بيت يستره..
 - أو حاجة من أمر الدنيا، ليس بها
باس".
- أجل.. إنهم ليدأبون فى الحياة كدأب الآخرين.. فمنهم التاجر..
والصانع، والمعلم، والزارع..
وإنهم ليسعون فى عون الناس ويخفون إلى نجدتهم كلما قدروا
واستطاعوا..
وإنهم ليملاؤن الحياة بدوى حكمهم، ويعبير فضائلهم.. لكن
حياتهم الباطنة تجعلهم يبدون بيننا، وكأنهم غرباء..
ذلك أنهم كما قال "شميط بن عجلان":

"أتاهم من الله أمر أقلقهم، فناموا على

خوف وقاموا على وقار" ..

وكما يقول "الحسن البصرى":

"خليق بمن يعلم أن الموت موده،

والساعة موعده، والقيام بين يدى الله

مشهده أن يطول حزنه ..

إن أمامهم غاية تناديهم وموعدا يدعوهم.. وليس معهم من العمر ما يكفي، ومن ثم فهم مهطعون وعداءون.

* * *

"يا بنى تميم.. وهبت لكم شبابي"
فهبوا لى شيتى ..

هذه صرخة أطلقها "إياس بن قتادة التميمي" فى قومه وعشيرته، ليركوا له البقية اباقية من عمره يدرك بها الركب المسرع إلى الرضوان العظيم.

ولقد سئل أمام من أئمة القوم، ذلکم هو "أويس القرنى" رضى الله

عنه:

"كيف الزمان معك؟"

"فقال: وكيف يكون الزمان مع رجل إن أصبح ظن أنه لا يمسى.. وإن أمسى ظن أنه لا يصبح.. مُبَشِّرُ الْجَنَّةِ، أَوْ مُبَشِّرُ النَّارِ..

- إن الموت وذكره لم يدعاً لمؤمن فرحاً.
- وإن علم المؤمن بحقوق ربه لم يترك له فى ماله فضة ولا ذهباً.

• وإن قيامه بالحق لم يترك له صديقاً"!!..

هذا فى إيجاز هو الشكل الحقيقى لاعتزالهم.. اعتزال للشروع وللأشرار، حتى لا تنال ولا ينالوا من تقواهم شيئاً.. وفى نفس الوقت رفض للشروع ومجابهة الأشرار فى نضال باهر قوامه الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر والجهر بكلمة الحق في وجه الخطر..
إنه ارتفاع عن مستوى الناس بالجهد الخارق الذي يبذلونه في
العبادة وتزكية النفس.. لكنه في نفس الوقت إسهام نبيل في خدمة الناس
وتبصيرهم بالحق.

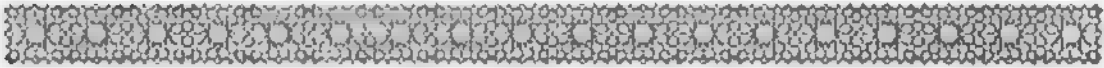
كل ذلك دون أن يشغلهم عن ذكر الله ومحبته شيء..
يقول "عامر بن قيس" :

"والله، لأن تختلف الأسنة في جوانحي،
أحب إلى من أن أشغل عن ذكر الله
ومحبته شيء.."

كل ذلك، دون أن يشاركوا أهل الدنيا، ولو في الطيبات المشروعة
والمباحة.. فلقد فطموا أنفسهم عنها وعاشوا وكأنهم غرباء بين
أهلها.

ها هو ذا "شميط بن عجلان" يردد شعارهم الذي سرى في حياتهم
مسرى الدم في العروق:

"صبراً على لأوائها، والموعِد الله!!".



والموعد الله...

قلنا فى أول سطور الكتاب: إنهم من الله العلى الكبير تبدأ مسيرتهم المباركة.. وإلى الله العلى الكبير ينتهى مسراهم ومعراجهم ولو أردنا أن نلخص حياتهم ومنهجهم فى عبارة واحدة لكانت: التجرد لله..

والتجرد عندهم، يعنى تكريس كل ما معهم من روح وجسد، وجهد ووقت لعبادة الله ومناجاته.. كما يعنى مع التكريس طرح النفس وفناء حظوظها.

يقول "ابن القيم" :

"صاحب التجريد، لا يستغنى إلا بالله، ولا يفتقر إلا إلى الله.. لا يفرح إلا بمرضاة الله، ولا يحزن إلا على ما فاته من الله. ولا يخاف إلا من سقوطه فى عين الله".

وهذا التجرد لله، والفناء في جلاله، هو عندهم "جوهر الحرية"..
 لأنهما - التجرد والفناء - يعنيان أن صاحبهما لم يعد رقيقاً لشيء من
 أشياء الحياة وعلاقاتها، وأنه قد صار كما يقول: (فرداً، لفرد)..
 هو، والله.. فأى سيادة هذه، وأى جلال؟!

إن هذا التجرد يعنى عند "أهل الله" أن الشخصية الباطنة
 للمتجرد قد اتصلت بخطوط مباشرة مع الملاء الأعلى، بعد أن حققت
 أعلى درجات الانتصار في حياة السريرة والضمير.
 يقول "بشر الحافى":

"من أراد أن يذوق طعم الحرية، ويستريح
 من العبودية، فليظهر السريرة بينه وبين الله
 تعالى"

عندئذ تفتح له الأبواب على درب الحرية، ويقطع الطريق وثبا في
 رعاية الله إلى المقامات الرفيعة في التجرد والفناء.

لا مكان لحظوظ النفس عند الذين يحيون في موعد مع الله.. وهذا
 هو الإيمان الحق.. وهو الحرية الحقة.. وهو التصوف الوثيق.
 يقول "الجنيد":

"التصوف، أن يملك الحق عنك،
 ويحييك به"..
 ويقول "سمنون":

"التصوف، ألا تملك شيئاً، ولا يملكك
 شيء"

ويقول "أبو يعقوب المزايلي" :

"التصوف حال تضحل فيها معالم
الشخصية"

هذا هو التجرد، الذى هو بدوره الالتزام الأساسى للسائرين إلى
الله.. وهو ليس ترفا روحيا.. بل فريضة محكمة، لأنه التعبير الصحيح عن
توحيد الله..

ومن ثم فالتجرد عند "أهل الله" لا يقف عند التجرد عن حظوظ
النفس وأهوائها، ولا يعنى صرف الأبصار والبصائر عن ناس الحياة
وأشائها.. بل يتخطى ذلك كله إلى البعد المفقود حيث يتجردون حتى
عن رؤية الطاعات والقربات والمعاناة التى حققت لهم التجرد وسلكتهم
فى موكب الواصلين!!

قال "الشبلى" يوما لرجل:

"أتدرى لم لا يصلح توحيدك؟...
لأنك تطلبه بك...!!"

فالذى يظن أنه يطلب الله بجهد هو، وليس بتوفيق مطلق من الله، لا
يحسن - فى رأيهم - التجرد، ولا التوحيد.

يقول "ذو النون المصرى" :

"عرفت ربي برى.. ولولا ربي ما عرفت
ربي.."

فالله هو كل شىء، وبه وحده تدرك الغايات.

والتجرد من رؤية النفس حتى وهى فى أبهى فضائلها، بعد تجردها

عن رؤية الأغيار كافة، هو حقيقة التوحيد، ولبابه..

وآية ذلك التجرد ماثلة فيما يقول "أبو عبد الله القرشى" :

"ألا يبقى لك منك شيء.."

وآيته كذلك، تعربة كل قوى الحياة من طاقاتها المستعارة،
والرجوع بفاعلية الأسباب إلى مصدرها الحق سبحانه وتعالى..
يقول "ميمون بن مهران" :

".. يقول أحدهم : اجلس فى بيتك،
وأغلق عليك بابك، وانظر هل يأتيك
رزقك؟.."

"نعم والله، ليأتينه رزقه ولو أغلق عليه بابه
وأرخصى ستره، إذا كان معه مثل يقين
"مريم" و "إبراهيم" عليهما السلام!!.."

إن التجرد فى أقصى حالات اكتماله، يتضمن التوكل فى أقصى
صور كماله.. بل ويتضمن كل فضائل التفوق الروحى عند "أهل الله
وخاصته".

وفى هذه الفقرة التى طالعناها لميمون بن مهران يقرر حقيقة
التوكل وصدقه مقترنة ببرهانها المشهود.

فقبل أن يسأل الناس: كيف؟ يريهم المشهد ويطوقهم بالبرهان.
فهذه "مريم" عليها السلام:

«كَلِمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ
عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَٰذَا؟

قَالَتْ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ
يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۖ

لقد كانت وهى معتكفة فى مصلاها، تفتح عينيها فجأة فإذا أمامها
وبين يديها فاكهة الشتاء فى الصيف، وفاكهة الصيف فى الشتاء!!..
وهذا أبو الأنبياء "إبراهيم" عليه السلام:
﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على
إبراهيم ۖ ﴾!!..

لقد ألقى به فى الأتون المستعر، وراحت النار تأكل نفسها دون
أن يمسها منها سوء - أى سوءا.
هنا تتعزى الأسباب تماماً من وجودها النسبى دون أن يكون ذلك
مدعاة لاهمالها فى تفكير "أهل الله" .. إنهم يقفون أمام هذه الظاهرة
ها تفين بالمؤمنين ألا يعبدوا الأسباب وألا يقدروها فوق قدرها، وأن
يفتحوا بصائرهم على واهب القوى والطاقات والنتائج.. ثم ليتبتلوا إليه
تبتيلاً..

* * *

وحين يتوفر للعبد هذا القدر من التجرد والتبتل يزلف إلى مباهج
الحب الذى لا حب مثله، ولا حب بعده!!..
وهنا الروضات اليانعات التى يتأنق فيها "أهل الله" ويتألقون..
فمحبته الله هى المجلى العظيم لأحلى وأروع أيام العمر عند أولئك
الذين قال الله عنهم:
"يحبهم، ويحبونه"!!

وفى روضات المحبة اليانعات، تتحول العبادة إلى خير ما فى الحياة من بهجة ومتاع.

وفى ظلال هذا الحب يؤدى العابد فروض ولاته وعبادته فى نشوة الكلف المحبور.. لا المكلف المأمور!!.

وهكذا رأينا حب الله يتجاذب "أهل الله" إلى آفاق شتى.. فبعضهم يود لو يعمر فى الدنيا ألف عام ليزداد من حلاوة العبادة والشوق.. وبعضهم يود الموت من فوره ويشتريه بكل ثمين وغال، لكى ينعم بحلاوة اللقاء..

يقول: "عامر بن قيس" وهو يبكى فى مرض موته:

"لست أبكى على دنياكم رغبة فيها..
إنما أبكى على ظمأ الهواجر، وقيام
الليالى الشاتية!!.

بينما يقول "عبد الله بن أبى زكريا" :

"لو خيرت بين أن أعمر مائة عام أقضيها
فى عبادة الله، أو أقبض فى يومى هذا،
اخترت الموت الآن شوقا إلى الله وإلى
رسوله والصالحين من عباده.."

* * *

وعندما يبلغون هذا المقام، يبلغ هيامهم بذكر الله وبالصلاة أشده وأقصاه.

إن لهم فى هذا المضمار أسوة حسنة بالرسول الكريم الذى يقول:

"إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا.

قالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله؟

قال: مجالس الذكر."

والذى كان يقول لمؤذنه بلال عندما يحين موعد الصلاة:

"أرحنا بها يا بلال!"

ولم يقل "أرحنا منها....." والذى قال:

"جعلت قرّة عيني في الصلاة!!"

إن "أهل الله" لتهزهم هذا شديدا هذه الآية الكريمة التى تقول :

﴿وللذكر الله أكبر﴾..

فهم لا يفسرون كلمة "أكبر" هنا بعظم الأجر وكبر المثوبة فحسب.

بل يفسرونها أساسا بما تومى إليه من جلال الله وجبروت سلطانه ورفعة كبريائه وشأنه.

وكما قال بعضهم :

"لم يتفضل الله علينا بدعوتنا إلى ذكره

وإثابتنا عليه بالجنة فحسب، بل كان

فضله قبل ذلك أن سمح لنا بأن نردد

ألسنتنا اسمه، وتستوعب قلوبنا ذكره!!"

ويقول "الكنانى" رضى الله عنه:

"لولا أن ذكر الله فرض على، لما ذكرته..

إجلالا له..

أو مثلى يذكره، قبل أن يغسل فمه بألف
توبة مُتَقَبِّلَةٌ ٢٢!!..

والذكر، ومجالس الذكر.. إنما يعنيان عند "أهل الله" حالات
الحضور الحق مع الله سبحانه وتعالى ذا كرين آلاءه، مقدسين أسماءه.
وهو ليس ترفاً في العبادة ولا نافلة.. بل فريضة وأساساً، هو
ضرورى لكى ينتقل العبد من الغافلين إلى الذاكرين.. ومن الذين
يعيشون رهن "حلم الله" إلى الذين يحيون في رحاب رحمته..
يقول "الكنانى":

"الغافلون، يعيشون فى حلم الله.
والذاكرون، يعيشون فى رحمة الله.
والعارفون، يعيشون فى لطف الله.
والصادقون، يعيشون فى قرب الله".

فذكر الله إذن ينقل المؤمن من عالم ما قبله إلى عالم ما بعده.. من
عالم حلم الله عنك، إلى عالم رحمته ولطفه، وحبه وقربه.. من عالم
الغفلة.. إلى عالم الذكر، فالمعرفة، فالصدق..
وعندما نادى الله عباده قائلاً:

"فاذكرونى، أذكركم"

وضع الذكر والذاكرين فى أعلى منازل القربات والمقربين..
ولقد أدرك "أهل الله" هذا ليس لما يمثله "الذكر" من شرف

المكانة وشرف الصحبة فحسب.. بل ولما يمثله من ضرورة وحتمية.
 فإذا كانت حياة العابدين تعتمد على القلوب المرحفة والتقية، فإن
 خير ما يجلو القلوب ويرهفها هو "ذكر الله".
 يقول "عوف بن عبد الله" :

"ذكر الله صقال القلوب.."

وهو ضرورى للمريد السائر إلى الله.. وللولى الذى نزل فى
 ضيافة الله.

فبالنسبة للمريد، يقول "أبو على الدقاق" :
 "الذكر ركن قوى فى طريق الحق سبحانه
 وتعالى، بل هو العمدة فى هذا الطريق،
 ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر".
 وبالنسبة للواصلين يقول:

"الذكر منشور الولاية - أى المرسوم
 الذى يعلن تبوأ الولي منصب الولاية -
 فمن وفق للذكر منح المنشور.. ومن سلب
 الذكر، فقد عُزل.."

وكما يتصور الفيزيائيون أن يكتشفوا قوانين تفسر قيام الكون
 وتماسكه من جاذبية ونسبية.. فإن "أهل الله" يرون فى العلاقات القائمة
 بين العباد وربهم الأعلى والتي بجوهرها ذكر الله سبحانه.. يرون فى هذه
 العلاقات سر بقاء الحياة واستمرارها.

يقول "عون بن عبد الله" :

"لو يأتى على الناس ساعة لا يذكر الله
فيها، لهلك من فى الأرض جميعاً" ..

ولكن من حسن حظ البشر، أنه لا تمر من الزمان لحظة واحدة بل
ولا جزء من اللحظة إلا والله فيها ذاكرون ومسبحون.. فليس الناس
وخدمهم هم الذين يذكرون الله ويسبحون بحمده. بل الشجر، والطير،
والجبال، والرمال..

وصدق الله أذ يقول:

﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن
لا تفقهون تسبيحهم ﴾

وبالنسبة للناس، يرى "أهل الله" فى الذاكرين حراس الحياة!
يقول "عون بن عبد الله" :

"ذاكر الله فى غفلة الناس، كالرجل
القوى الذى يظهر فى الفئة المنهزمة،
فيمنحها التماسك والثبات، ولولاه
لدامت هزيمتها.

كذلك من يذكر الله فى غفلة من الناس،
لولاه لهلك الناس"!!!..

* * *

وإن "أهل الله" ليولون ذكر الله من اهتمامهم واستعدادهم وإجلالهم ما يمليه عليهم توقييرهم الله وإدراكهم لجلاله وتأديبهم في حضرته..

فهذا واحد منهم - هو "خليفة بن عبد الله" كان يأمر بالبیت فينظف، ثم يغلق باب حجرته، ويجلس على مصلاه، ويقول:

"مرحبا بملائكة ربي.. أما والله

لأشهدنكم اليوم خيرا.. خذوا باسم الله...."

ثم يمضي في تسبيح الله وذكره، وروحه تتفجر حماسا وشوقا وغبطة! والذكر عند "أهل الله" قيمة تعبر عن ذاتها بذاتها.. قيمة يتحد فيها الشكل بالمضمون اتحادا لا يسمح باللفو أبدا..

ومن ثم، لم يضعوا "مواصفات" خاصة لذكر الله.. فساعة الذكر، إما أن يكون العبد ذا كرا لله حقا فعندئذ يملى عليه جلال الموقف الشكل المناسب والصيغة الملائمة.. وإما أن يكون مجرد محترف أو هاو أو متظاهر.. فهذا لا يدخل في حسابهم، ولا تقع عليه نظراتهم.

أجل.. سواء عند "أهل الله" أن يذكر العابدون ربهم سرا أو جهرا.. فرادى، أو مجتمعين.

المهم أن يكون الذكر ذكرا.. والذاكر ذا كرا.. أي أن يكون هناك حضور كامل قدر المستطاع، وأدب كامل يملأ الزمان والمكان والمناسبة.

إن "أهل الله" يذكرون الحديث القدسي ويذكرون به.. الحديث الذي يحكى قول الله سبحانه:

"أنا جليس من ذكرنى!!"

هنا الميزان الذى لا ميزان مثله، ولا ميزان بعده.. حين تذكر الله فالله جليسك.. يا للرهبة التى تذيب الصخر.. ويا للجلال الذى يدك الجبال دكا!!

الله جليسك، فانظر إذن كيف تكون زمانا، ومكانا، وهيئة، ومناسبة.. ففى مثل هذا الموقف لن تكون بحاجة إلى من ينظم لك هيئتك، وسمتك، وحركاتك، وكلماتك.. أنت وحدك أدرى!!؟

* * *

قلنا من قبل: إن "أهل الله" حين يحققون لأنفسهم التجرد والتوكل، ويزلفون إلى رياض المحبة والفناء الذى يحققون به التكامل.. تحيا أرواحهم فى شغف مطلق بذكر الله، وبالصلاة..

ولقد رأينا وقفهم مع ذكر الله، فلننظر الآن وقفهم مع الصلاة.. ولكن.. لماذا الذكر والصلاة خاصة؟

إن لكل العبادات وكل القربات قدرها وحرمتها وشغف الأولياء المتقين بها، بيد أن الصلاة والذكر يتوجان العبادات جميعا والقربات كافة.

ذلك أن الله سبحانه شرع الصلوات فى اليوم والليلة خمس مرات عدا ما يتخللها من نوافل ومسنون.

و "أهل الله" بما معهم من بصيرة ونور يدركون أن الله الغنى عن عباده لم يفرض الصلوات خمسا عبر اليوم وليلته إلا لسر عظيم وحكمة بالغة..

لقد جعلها خمسا.. ثم لم يركزها فى زاوية من زوايا النهار أو طرف من أطرافه.. بل وزعها توزيعا متناسبا مع اليوم كله نهاره وليله.. أفلا يدل ذلك على شىء؟ بلى.. "وأهل الله" خير من يفطن لأسرار التشريع وحكمته..

وهكذا تواصلوا بالصلاة حين أدركوا أن الله أرادها لتكون خط الاتصال الدائم والمستمر بينه وبين عباده، ولتكون وليمته المباركة فى الأرض يُنادى إليها الناس كل بضع ساعات مرة، لينزلوا فى ضيافة الله ويتزودوا من رضوانه.

فمن ذا الذى يهيئ الله له وسيلة الاتصال المباشر والدائم بحضرته وقدسه، ثم لا يستثمر هذه النعمة بأقصى وأقصى جهده وجهاده؟..

والواصلون إلى الله، والماثلون فى حضرته، هم أكثر العابدين حرصا على هذا الاتصال - ليس فقط لما يرجون من مزيد النعمة والفضل.. بل ولأنهم يعلمون مدى حاجة العباد إلى عون الله حتى يكونوا من الأولياء والأبرار والواصلين.

فلطالما سمعوا عن نبيهم الذى اصطفاه الله واجتباه أنه كان دائب اللهج بهذا الدعاء:

"يا مُقَلِّب القلوب ، ثبت قلبى على دينك"

حتى إذا سئل عن سر إلحاحه بهذا الدعاء، قال:
 "إن القلوب بين إصبعين من أصابع
 الرحمن، يقلبها كيف يشاء..
 من أجل هذا كان ولاؤهم الوثيق للصلاة.. وكان كذلك لذكر الله..
 فمعنى الاتصال والاستمرار والحاجة في الاثنين واحد.
 والذكر مطلوب في كل آن.. وهو لا يتمثل وحسب في كلمة "لا إله
 إلا الله" وإن تك هذه من أعلى شعائر الذكر وأسمائها.. لكنه يتضمن كل
 خلجة قلب، وكل ابتهالة لسان يتحقق من خلالها الحضور مع الله
 واستشعار عظمته، ورؤية آلائه ونعمائه وآياته..
 من أجل هذا، كانت تلاوة القرآن عند "أهل الله" تاج الذكر
 والذاكرين..

* * *

على أن ثمة معنى آخر بالغ الأهمية في شغف "أهل الله وأوليائه"
 بذكر الله وبالصلاة..

ففي هذا الشغف وهذا الولاء دحض حازم لبعض الدخلاء على
 الطريق، الذين يزعمون أنهم بالوصول إلى الله سبحانه وتبوءهم مكانة
 الولاية قد أصبحوا أحرارا في التحرر من بعض التكاليف والعبادات..
 لا ... إن "أهل الله" ليدركون أن طاعة الله في تعاليم دينه هي
 طريق البدء، وطريق السير، وطريق الختام.. وأن كل زيغ عنها أو تفريط
 فيها إنما يعنى - والعياذ بالله - الطرد من نعمته وحضرته..

كذلك، فهم يدركون أن الدأب على أداء فرائض الدين ونوافله، ليس طريقهم إلى المزيد من فضل الله وحبه وحسب، بل هو أمانهم الوحيد من الخذلان.

فأمام أبصارهم وبصائرهم تبرز دائما كلمة الصديق الأكبر:
 "لا آمنُ لمكر الله، ولو كانت إحدى
 رجلى في الجنة"

فالتفريط مرفوض بعد أن سمعوا قول الله لرسوله:

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾

والإفراط مرفوض بعد أن سمعوا قول الله لرسوله:

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾

والاتباع وحده - اتباع الرسول والقرآن والشرعة - هو طريقهم
 الأوحى إلى الله.

من أجل هذا، وعلى الرغم من أنهم أهل الكرامات والخوارق،
 فإنهم لا يجدون للخوارق أية قيمة ما لم تكن صادرة عن ولى تقى، وما
 لم يكن صدورها تعبيراً خاصاً فى مناسبة خاصة عن دعوة للحق يراد
 تزكيتها بالكرامة، أو فضيلة يراد دعمها بها.

هذا هو "أبو يزيد البسطامى" رضى الله عنه يقال له:

- إن فلانا يجىء من بلده إلى مكة فى ساعات.

فيجيب قائلاً:

- وأى بأس؟.. إن الشيطان يطوف الأرض كلها فى لحظات!

ويقال له:

- إن فلانا يطير فى الهواء، ويمشى على الماء.

فيجيب قائلا:

- وأى فضل له؟ إن الطير يطير فى الهواء.. وإن السمك يمشى

عباب الماء!!..

ثم يقول:

"لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامة

حتى يتربع فى الهواء، فلا تغتروا به حتى

تنظروا كيف هو عند أمر الله ونهيه..

وحفظ حدوده.. وأداء شريعته!!..

فـ "أهل الله وأولياؤه" .. أكثر المؤمنين والعابدين التزاما بشريعة

الله، ومن ثم كان ارتباطهم الروحى الذى لا تهدأ أشواقه إلى ذكر الله

وإلى الصلاة، للمعنى الذى أسلفنا شرحه وتبياناه..

وكما ينهض الذكر لديهم معيارا لاستقامة الضمير والمسير..

فكذلكم الصلاة..

هذا "أبو العالية" يقول:

"إنى لأرحل إلى العالم مسيرة أيام، فأول

ما أتفقده من أمره صلاته، فإن وجدته

يقيمها ويتمها أقمت عنده وسمعت منه،

وإن وجدته يضيّعها رجعت ولم أسمع منه

وقلت لنفسى: هو لغير الصلاة أضيع!!

أجل.. هو لغير الصلاة أضيع.. فالذى لا يجد لله ولا لنعمائه حقا عنده فى خمس فرائض يصلّيها. فينظف بالوضوء لها جوارحه.. ويزكى بها روحه.. ويرضى بها ربه.. الذى لا يقر لله بهذا الحق السهل الأداء، والمتواضع اليسير، لا يرجى منه بعد ذلك بر بنفسه ولا بر بالآخرين.. وليست الصلاة وحسب هى دليل "أهل الله" إلى الخير.. بل إن استقصاء آدابها هو أيضا دليل.

هذا "أبو يزيد البسطامي" يحدثونه عن رجل مشهور بالعلم والزهد، فيسافر "أبو يزيد" إلى البلد الذى يقيم به الرجل، وهناك يعلم أنه بالمسجد، فيسارع للقاءه.. ولم يكذب بلغته حتى وجده بطريق الصدقة يرمى ببصاقة تجاه القلبة، فانصرف "أبو يزيد" من فوره عائدا إلى بلده وقال:

"هذا غير مأمون على أدب من آداب

رسول الله ﷺ، فكيف يوثق بعلمه وزهده

وصلاحه؟"

إن "الصلاة" عند "أهل الله" تمثل لقاء حقيقيا مع ذى الجلال

والإكرام.

من أجل هذا كان يغشى أرواحهم ما يغشى، وهم قائمون بين يديه

سبحانه، يصلون له ويتلون آياته..

وإنهم ليفرقون بين المحافظة على الصلاة والحفظ لها.

وليست المشكلة عندهم أن نحافظ عليها أى نؤديها فى أوقاتها. بل

أن نحفظها أى نؤديها بالخشوع الكامل والمثول الحق!!

يقول "أبو بكر بن العربي":

"إنى لأعرف من الذين يحافظون على
الصلاة آلافا أحصيتهم..

أما الذين يحفظونها فلا أجد منهم
خمسة!"

ولقد كانوا يبذلون الجهد الأكبر من رياضة النفس والروح فى
سبيل اكتساب الموقف الصالح والخاشع لكل صلاة.
يقول "ثابت البناني":

"كابدت الصلاة عشرين سنة،
واستمتعت بها عشرين سنة!!"

يعنى بذلك أنه خلال أربعين سنة قضاها فى العبادة الموصولة،
كان هناك عشرون عاما قضاها فى تدريب نفسه على كل ما تتطلبه
الصلاة من خشوع وحضور ويقظة.. فلما تم له ذلك بعد معاناته ومكابدته
طوال السنوات العشرين، صارت متعته بالصلاة وفيها، تفوق كل متاع.

وإننا لنعجب عجباً لا ينتهى حين نتتبع أنباء أولياء الله الصالحين
وهم يصلون.. فحفاوتهم بالصلاة، وتوقيرهم إياها، وفناؤهم فيها أمر
يتعاضم كل وصف وكل إطراء..

هذا هو "زرارة بن أوفى" يصلى بالناس صلاة الفجر، فيقرأ بعد
الفاتحة.. سورة "المدثر" ويفنى فى جلال الصلاة ورهبتها، حتى إذا
وصل فى تلاوته إلى الآيات الكريمة:

﴿إِذَا نُفِخَ فِي النُّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمُنَا يَوْمُ

عَسِيرٍ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾

تسحقه الرهبة الجليلة، فيسقط من فوره ميتاً وشهيداً!!
وهذا هو "منصور بن المعتمر" كانوا يقولون عنه:
"لو رأيت منصوراً، وهو يصلي، لقلت:
يموت الساعة!!".

ولقد كانت ابنة جار له تبصر في هزيع الليل شيئاً يشبه الخشبة
المنصوبة فوق سطح دار "منصور" .. وذات ليلة أرسلت بصرها حيث
تعودت أن ترى ذلك الشيء الذي حسبته خشبة فلم تجده مكانه فسألت
أباها:

- أين الخشبة التي كنت أراها كل ليلة منصوبة فوق سطح
"منصور"؟.

فأجابها أبوها:

- "يا بنية ..

"ذاك "منصور" نفسه، يقوم الليل مصلياً"!!..

تلك هي الصلاة حقاً. يفنى فيها "أهل الله" فناء الأيقاظ

المشاهدين، ولا يصرفهم عن جلالها رغبة ولا رهبة.

فـ "عمرو بن عتبة" يقف في ظلام الليل وهدأته يصلي، ويسمع
أصحابه القادمون إلى جواره في الفضاء المكشوف زئير أسد يقترب،
فيولون هارين.. ويستمر "عمرو" في صلاته لا يهتز ولا يختلج..

ويقترب منه الأسد، ويطوف حوله ويتشمم ويحملك..

و "عمرو بن عتبة" كأنه غير موجود.. وينصرف عنه الأسد في

سلام، ويعود أصحابه فيسألونه بعد أن أتم صلاته:

- أما خفت الأسد؟.. فيجييبهم:

"إنى لأستحي من الله أن أخاف شيئاً
سواه وأنا بين يديه"

وعن "عمرو بن عتبة" هذا، رضى الله عنه، وعنهم أجمعين يقول
"أبو نصر بشر بن الحارث":

"كان عمرو بن عتبة يصلى والغمام فوق
رأسه، والسباع حوله تحرك أذناها"!!..

لقد كانت الصلاة قرّة أعينهم إلى الحد الذى كانوا يستقلّون
أعمارهم مهما تطل لكى يقدموا منها المزيد إلى الله.

هذا "ثابت البنانى" يضرع إلى الله داعياً:

"اللهم إن كنت قد أعطيت أحداً من
خلقك نعمة الصلاة فى القبر فأعطنيها" ..

إنه يكاد يتمنى الخلود ليملاّه صلاة ثم صلاة ثم صلاة! أما
والخلود فى هذه الدنيا غير ميسور، فهو يسأل ربه فى ضراعة:
إن كان يحق له أن يطمع فى فضل ربه ورحمته ونعمته، فيعطيه من
الحياة قبساً برزخياً يمكنه من أداء الصلاة فى قبره، ويظفره بنعمتها
وحلاوتها؟.

* * *

لكم الله، يا أهل الله.. لكم أتم فى الحياة نورها، وشرفها،
وضميرها، وعافيتها، ومداها...!





تعريف بالكاتب



خالد محمد خالد
(المتوفى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)

كان مولده يوم الثلاثاء ٢٧ رمضان سنة ١٣٣٩ من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الموافق ١٥ يونية سنة ١٩٢٠ ميلادية، في "العدوة" إحدى قرى محافظة الشرقية بمصر، والتحق في طفولته بكتاب القرية، فأمضى به بضع سنوات، حفظ في أثنائها قدرًا من القرآن، وتعلم القراءة والكتابة.. ولما عقد والده - الشيخ محمد خالد - عزمه على أن يلحقه بالأزهر الشريف، حمّله إلى القاهرة، وعهد به إلى ابنه الأكبر "الشيخ حسين" ليتولى تحفيظه القرآن كاملاً، وكان ذلك هو شرط الالتحاق بالأزهر في ذلك الوقت.

أتم حفظ القرآن كله في وقت قياسي وهو خمسة أشهر كما بين ذلك مفصلاً في مذكراته "قصتي مع الحياة" - ثم التحق بالأزهر في سن مبكرة، وظل يدرس فيه على مشايخه الأعلام طيلة ستة عشر عاماً حتى تخرج فيه، ونال الشهادة العالية من كلية الشريعة سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م، وكان آنذاك زوجاً وأباً لاثنتين من أبنائه.

عمل بالتدريس بعد التخرج من الأزهر عدة سنوات حتى تركه نهائياً سنة ١٩٥٤، حيث عين في وزارة الثقافة كمستشار للنشر، ثم ترك الوظائف نهائياً بالخروج الاختياري على المعاش عام ١٩٧٦. وبذلت له عروض مغرية كثيرة لنيل وظائف قيادية في الدولة، سواء

فى رئاسة جمال عبد الناصر أو أنور السادات، فكان يعتذر عنها، ورفض عروضاً أخرى كثيرة لأسفار يسيل لها اللعاب، وآثر أن يبقى فى حياته البسيطة المتواضعة التى يغلب عليها الزهد والقنوع^(*).

وقد تقلبت حياته فى أطوار متعددة، من حفظ مبكر وسريع للقرآن الكريم، إلى طالب نابه بالأزهر الشريف، إلى شاب متعطش للمعرفة، تواق إلى أنواع الفنون والآداب والثقافات، إلى منغمس فى السياسة مشغول بها، إلى خطيب بارع تهز خطبه السياسة أعواد المنابر، ثم إلى واعظ تغمر دروسه وخطبه القلوب بنشوة الإيمان، إلى عابد مشغول بالآخرة، وصوفى مشغول بربه، وهكذا.. وقد شرح ذلك بالتفصيل فى مذكراته التى كتبها وجعل عنوانها "قصتى مع الحياة".

وفى سن مبكرة التقى بشيخه المربى الكامل الشيخ محمود خطاب السبكى إمام أهل السنة ومجدد رواق الإسلام - كما وصفه هو - وكان أعجوبة من أعاجيب الزمان، وشاهداً على ما يفيض الله على أوليائه وأحبابه من واسع فضله وعطائه^(**).

وصفه بقوله: "إن وصفه لمن الأمور الصعبة، والحديث عنه بقدر ما هو شهى وندى.. يوقع الكاتب فى حيرة.. وهكذا يكون شأننا مع أنبياء الله والمرسلين.. ومع أوليائه المقربين.. فنحن ننشق عبيهم الذى يتضوع بهاء وعطراً.. ونتقلب فى نعماء ما آتاهم الله من نور وهدى وحكمة.. بيد أن الاقتراب منهم يفرض علينا من التبعات ما لا نطبق.. والحديث

(*) انظر "قصتى مع التصوف" لحالد محمد خالد نشر دار المقطم للنشر والتوزيع بالقاهرة.

(**) انظر قصتى مع التصوف.

عنهم، وتفسير موافقهم، أمر يعسر تناوله إلا على من يجعل الله عسره يسراً" (*).

وكما كانت حياته فى بواكيرها كالنهر الذى تجيش مياهه بالفيضان، وتتقلب فى تدفق وعنفوان، فإنه كلما اقترب من البحر هدأت أمواجه، واطمأنت مسيرته، حتى إذا امتزج بماء البحر صار له هدوؤه وشموله واتساعه..

وجاءت مؤلفاته الرائدة كذلك؛ بدأت ثائرة متدفقة.. وانتهت إلى الرسوخ واليقين.. وفى كلها كان مخلصاً، لا يبتغى بأى منها عرضاً من أعراض الدنيا. بل لقد جاءت هذه الدنيا تعرض نفسها عليه من أوسع أبوابها، فأوصد دونها بابه...

ومثال على ذلك أن جمال عبد الناصر ورفاقه فى مجلس قيادة الثورة كانوا قد قرأوا كتبه قبل الثورة، وتحمسوا لها لدرجة أن عبد الناصر كان يشتري منها - من جيبه الخاص - مئات النسخ ويوزعها على زملائه الضباط (**)، ومع ذلك فإنه لما قامت الثورة لم يرد أن يستفيد منها، وكانت فرصته فى ذلك عظيمة، ولكنه بدلاً من ذلك وقف ناقدًا للثورة موجهًا لها، مطالبًا حكومتها بتطبيق الديمقراطية، فكان صدور كتابه "الديمقراطية أبداً" بعد ستة أشهر فقط من قيام الثورة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢.

(*) من مقدمة الكتاب "فى صحبة الشيخ محمود خطاب إمام السنة وفطى الأقطاب" للأستاذ توفيق أحمد حسن، دار المقطم بالقاهرة.

(**) انظر "فصلى مع الحياة" فصل: حوار مع عبد الناصر.

وظلت هذه مواقفه من الثورة ورجالها حتى توجت بموقفه الفريد فى "اللجنة التحضيرية" سنة ١٩٦١، وفيها انتقد مواقف الثورة من قضايا الحرية والديمقراطية، وعارض ما أراد عبد الناصر القيام به من إجراءات تعسفية ضد من أسموهم - حينئذ - ببقايا الإقطاع، وأعداء الشعب.. بعد أن نزعوا أموالهم غصباً وظلماً، ونكلوا بهم بغير جريمة ارتكبوها، فصاروا بعد عز فى ذل، وبعد غنى فى فاقة وعوز، وبعد أمن فى خوف، ولا يجدون من يدافع عنهم، أو ينتصر لهم.. فكان هو الصوت الوحيد الذى ارتفع فى وجه الصمت والخوف، مدافعاً عن الحق، طالباً لهم - بدلاً من العزل السياسى - "العدل" السياسى، ولما أخذ التصويت فى المجلس على من يعترض على إجراءات العزل السياسى، كانت يده هى الوحيدة التى ارتفعت فى سماء القاعة التى ضمت - يومئذ - ثلاثمائة وستين عضواً (*).

منذ كتابه الأول "من هنا نبدأ" خرج خالد محمد خالد على الناس ككاتب فذ، وصاحب فكر، ومنافح عن قضايا الأمة.. وبذا تحدد موقعه كمصلح اجتماعى وزعيم فكرى تعلق به جماهير غفيرة من الناس، وأعجبت بكتبه وأفكاره، ليس فى مصر وحدها، بل وخارجها أيضاً.. وطبع "من هنا نبدأ" ست طبعات فى سنتين اثنتين، وترجم فى نفس السنة التى صدر فيها إلى الإنجليزية فى أمريكا، وكتبت عنه عدة رسائل وأبحاث جامعية ومقالات فى أنحاء متفرقة من أوروبا وأمريكا.. ولكن فطرة المؤلف النقية، ونيته الصادقة جعلاه - فيما بعد - يقول

(*) انظر "قصى مع الحياة" فصل: حوار مع عبد الناصر.

إنه عندما رأى حفاوة أعداء الإسلام بالكتاب أدرك أنه أخطأ فيه. وهنا يتجلى واحد من مواقفه التي امتلأت بها حياته، إذ ظل يفكر فيما دعى إليه فيه من فصل الدين عن الدولة وبقلبه في ذهنه حتى أعلن على الملأ رجوعه عن هذا الرأي، فلم يخجل - وهو الكاتب الكبير - من أن يعلن أنه أخطأ.. وراح يصحح ذلك الخطأ بكل قوته. فلم يترك وسيلة من وسائل إذاعة هذا التصحيح إلا أتاها من مقالات، أو تحقيقات صحفية أو إذاعية أو تلفزيونية.. ثم لم يكتف بهذا كله، فكتب كتاباً كاملاً أعلن فيه تصحيحه لرأيه الأول، وراح يدلل على أن الإسلام دين ودولة، بل إنه جعل شعار الكتاب هو: "الإسلام دين ودولة.."

حق وقوة..

ثقافة وحضارة..

عبادة وسياسة.."

وقد خلف - رحمه الله - ثروة علمية كبيرة تربو على ثلاثين كتاباً، غير المقالات والأحاديث الكثيرة التي لم تُجمع بعد.. وقد نفع الله بأعماله تلك نفعاً كبيراً، وتلقفها القراء في شوق، لأنها - ككل أعماله - اتسمت بالإخلاص، وتدفقت بالعاطفة الصادقة الجياشة.. وأشهر مؤلفاته، وأكثرها انتشاراً هي الإسلاميات التي جاءت فريدة في بابها من حيث الأسلوب، وطريقة تناولها، وأشهرها على الإطلاق "رجال حول الرسول ﷺ" الذي تحدث فيه باقتدار عن سيرة ستين من

أصحاب رسول الله ﷺ، و "خلفاء الرسول ﷺ" الذى ضم بين دفتيه
خمسـة كتب عن الخلفاء الراشدين:

١- "وجاء أبو بكر"

٢- "بين يدي عمر"

٣- "وداعاً عثمان"

٤- "فى رحاب على"

٥- "معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز"

وقد ترجمت هذه الكتب إلى لغات كثيرة فى أنحاء عديدة من
العالم..

ومن كتبه أيضاً: "أبناء الرسول فى كربلاء" و "والموعد الله" و
"لقاء مع الرسول ﷺ" و "كما تحدث الرسول ﷺ" و "كما تحدث
القرآن" و "إنسانيات محمد ﷺ" و "عشرة أيام فى حياة الرسول ﷺ"
وغيرها..

أما كتبه السياسية والإنسانية والاجتماعية والفلسفية فهى عديدة
كتب منها ثلاثة كتب فى موضوع الديمقراطية وحدها، وهى:
"الديمقراطية أبداً" و "دفاع عن الديمقراطية" و "لو شهدت حوارهم
لقلت" .. راجع قائمة المؤلفات فى آخر الكتاب..

وكتب - أيضاً - مذكراته فى كتاب "قصتى مع الحياة"، وقد نشرت
لأول مرة فى جريدة "المسلمون" السعودية و "المصور" المصرية فى آن
واحد، وبعد أن تمت طبعت فى جزء واحد فى مؤسسة أخبار اليوم، ثم
طبعت طبعة جديدة بدار المقطم بالقاهرة.

وكان آخر كتبه "الإسلام ينادى البشر"، وقد أراد له أن يخرج فى

ثلاثة أجزاء:

الأول: إلى هذا الرسول ﷺ

الثاني: "إلى هذا الكتاب" (القرآن)

والثالث: "إلى هذا الدين"

ولكنه لم يتمكن إلا من كتابة الجزء الأول، ثم وافته المنية.

أما عن عاداته في الكتابة، فإنه لم يكن يجلس للكتابة - قط - إلا إذا استشعر الحاجة الملحة لذلك، وتكون الفكرة التي يريد الكتابة عنها قد نضجت، وطلبت الظهور، حينئذ يجلس في أى مكان، وفي أى ظروف ويبدأ في الكتابة دون أن يلتفت لما حوله أو ينشغل به.. وقد تمضى - أحيانا - من حياته سنوات دون أن يكتب فيها شيئا لأنه لم يجد ما يهيج في نفسه الدافع للكتابة..

وقد اتسمت كتاباته بأسلوب رشيق بديع، وقدرة فائقة على التعبير والغوص إلى جوهر الأشياء، ووصفها بيسر وروعة، واقتدار. وكان كثيرا ما يسأل عن السر في جمال أسلوبه فكان يقول:

"إن الأسلوب في الكتابة لا يصنعه شيء إلا رب العالمين"

وقد أورد الدكتور شاكر النابلسي في كتابه الذي كتبه عنه نموذجا من كتابته، وجعله تحت عنوان "عزف لغوى" (*)، وهو العنوان الذي يصف رشاقة أسلوبه وجماله، ونفوذه إلى القلوب..

وكان - رحمه الله - طيب النفس، مستبشرا في عامة أوقاته، تغلب

(*) ثورة التراث، دراسة في فكر خالد محمد خالد للدكتور شاكر النابلسي.

عليه السكينة والتأمل..

وكان غاية في الكرم، غاية في التواضع ونبيل الأخلاق، باراً بوالديه وصولاً للأرحام مراعيًا لحقوق الزمالة والجيران، ساعياً - إلى آخر أيامه - في قضاء حوائج الناس، لا يمل من كثرة قاصديه، ولا يضجر من إلحاح بعضهم عليه حتى في أوقات مرضه، وكان يقول: "تلك زكاة الجاه".

واتسمت حياته كلها بالزهد في المال والمناصب ومظاهر الجاه، وقد استفاض في وصف ذلك من عرفوه وكتبوا عنه^(١) ومن ذلك أيضاً مواقفه التي أظهرت ما كان عليه من شجاعة ومن مكارم الأخلاق منها موقفه من الإخوان المسلمين الذين كان قد عارضهم قبل الثورة، ولكنه بعدها، وبعد أن نكلت الثورة بهم ومزقتهم كل ممزق، طلب منه مهاجمتهم وتقدهم فأبى ولم يخضع لإغراء ولا تهديد قائلاً: "لقد ناقشت الإخوان وتقذت فكرهم وسلوكهم يوم كان بعض قادة الثورة من مجاذيبهم!! ويوم كانوا من القوة بمكان.. أما اليوم وهم في المعتقلات والسجون تحت وطأة التعذيب، فقد أوصانا سيدنا الرسول ﷺ ألا نجهز على جريح".

وقد نقل الشيخ يوسف القرضاوى تفاصيل هذا الموقف في مذكراته التي نشرها في جريدة "آفاق عربية" (العدد رقم ٥٧٣).^(٢)

كان - رحمه الله - محباً للخير، مسارعاً إليه، كأنه كان يصف كوامن

(١) راجع "قصي مع التصوف" ص ٣٧ وما بعدها طبعة دار المقطم بالقاهرة.

(٢) راجع "قصي مع التصوف" ص ٤٤ وما بعدها - ط المقطم.

الخير في نفسه عندما كتب هذه السطور من كتابه "لقاء مع الرسول ﷺ":
 "فإذا سألتني - أيها القارئ - ما الخير؟ أجيبك من فوري: إنه
 الخير.. إنه ذلك الذي يجعل الإنسان إنسانا حتى القلب، ريان الضمير..
 وذلك الذي يجعل منك ملاذا للآخرين، يأوون إليك كما يأوي المحرور
 إلى ظل شجرة، أو كما يأوي الظمآن إلى عين ثرة تفيض بالماء البارد
 النмир.

هو انعكاس إنسانيتك على الآخرين، وإضفاء فضائل نفسك البارة
 الكريمة على الحياة وعلى الأحياء.
 وإن خير ما يصنعه المرء في حياته هو أن تسع حياته الناس رحمة
 وبراً، ومحبة ووداً".

فكان محباً للناس، لجميع الناس، مستأنساً بهم، متودداً إليهم،
 متغافلاً عن أخطائهم متسامحاً مع من يسيئون إليه..
 كان - باختصار - متخلقا بأخلاق الإسلام، وإن لم يحرص على أن
 يكسو نفسه بمظهره.. بل كان له مظهر الرجل العادي - كسائر الناس. أما
 سلوكه وأخلاقه فكانا يدلان على عمق إيمان ورسوخ يقين..

وكان يعزو ذلك إلى التصوف فيقول في مذكراته:
 "ومرة أخرى أُنحني إجلالاً للتصوف، فهو الذي سكب في روعي كل
 ما روى ظمأها إلى الخير والسكينة والرحمة والمعدلة، وكل ما بقي
 لي.. من قربات ومغانم ومناعم، ومن فضائل وقدرة وإصرار.. فإليه - أولاً
 - يرجع الفضل بين كل الأسباب، وقبل كل الأسباب"

لقد كان - رحمه الله - ممن تشرب روح التصوف منذ يفاعته، ولم
 يكن تصوفه إلا في قلبه، فلم ينتم إلى أي من طرقه، بل تلقاه مبكراً على

يد شيخه السبكي رضى الله عنه (*)

وكان محبا لأهله أينما وجدوا مداوما على زيارة أضرحة أهل البيت، وأولياء الله الصالحين .

ومن أقواله المأثورة:

- "إنى لا أرفض إنسانا لأن فيه خطأ أو اثنين أو عشرة، وأرفض معه بقية فضائله، فقد توجد فيه فضيلة واحدة تزن صلاح مائة عابد ."
- "إن الحب هو جوهر الحياة.. إن الحب يولد فى النفوس طاقة لا تعدلها طاقة أخرى فى الكون ولا تقابلها"
- "الله سبحانه لا يعيق المهاجرين إليه، والمسافرين إلى رضوانه، بل يجعل لهم الأرض مهدا، والسماء سبلا ."
- "على رأس فضائل الحياة وشعار الدين تقف فضيلة الحب"
- "لأبد للحب كى يصفو ويدوم أن يكون خالصا، صافيا، نقيًا، وبكلمة واحدة: أن يكون لله رب العالمين ."
- "كما ننام نموت.. وكما نستيقظ نبعث.. ومن كان فى شك من الموت والبعث، فليعيش إن استطاع بلا نوم وبلا استيقاظ ."
- "علاقة العبد بربه تتطلب مراجعة مستمرة للتبعات التى تفرضها والسلوك الذى نحمل به هذه التبعات ."
- "إننا من طول ما ألفنا بعض الآيات القرآنية، وبعض الأحاديث النبوية، أصبحنا لا نهتز من أعماقنا للسر الباهر الذى تحمله، والحكمة الثابتة التى تمنحها ."

- "إن صحبتنا الصالحين الذين لم تجمعنا بهم خلطة مباشرة تكشف عن حقيقة أنفسنا ومالها من حظوظ الخير والفضيلة".
- "لا تجد مؤمنا إلا حيا، ولا منافقا إلا عديم الحياء".
- "الإسلام لم يأت ليعلمنا أخلاق الصوامع.. بل ليعلمنا أخلاق المدينة".
- "الكذب مفسدة مطلقة، لأنه سريع النمو، سريع الانتشار، وله ضراوة كضراوة الخمر أو أشد".
- "الرياء آفة تمحق الأعمال وتردها ترابا في تراب".
- "التواضع نعمة من الله يهبها لكبار النفوس".
- "الإيمان بالقدر لا يقول لك: نم وانتظر قدرك.. بل يقول: قم واكتشف قدرك".
- "وسئل عن القومية العربية فأجاب: إني لا أعرف شيئا عن القومية العربية، ولكني أعرف أشياء عن الوحدة الإسلامية".
- وقال شعرا في عيد مولد النبي ﷺ:

يا عيد مولده كم ذا تواتينا تشدو فتبهجنا، تشجو فتبكيانا
قل للرسول إذا ما جئت روضته أدرك شعوبك قد حار المداونا

وفاته:

كان - رحمه الله - قد مرض مرضا طويلا، واشتد عليه في سنواته الأخيرة، ومع ذلك كان دائم القول: "لا راحة للمؤمن دون لقاء الله" ولم تكن فكرة الموت تزعجه، بل كان كالمنتظر له على شوق، وقد استعد له،

وأوصى بما يريد..

وكان من وصيته أن يصلى عليه فى الجامع الأزهر، معهد العلمى،
ومرتع صباه وشبابه، وأن يدفن بقريته "العدوة" بجوار الآباء والأجداد
والإخوان والأهل..

وجاءته الوفاة وهو فى المستشفى يوم الخميس، ليلة الجمعة ٩
شوال سنة ١٤١٦هـ الموافق ٢٩ فبراير سنة ١٩٩٦م - عن عمر يناهز
الستة والسبعين عاما.

اللهم إنى قد قلت فيه مبلغ علمى..
ولا يخلو كلامى من أثر حب الولد لوالده..
اللهم لا تكله إلى عمله..
واشمه برحمتك يا بر يا رحيم..
وصل اللهم على الحبيب الشفيق..
سيدنا محمد..
وسلام على المرسلين..
والحمد لله رب العالمين..

محمد خالد ثابت